دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

قصص مسيحية للحياة

للأب متى المسكين

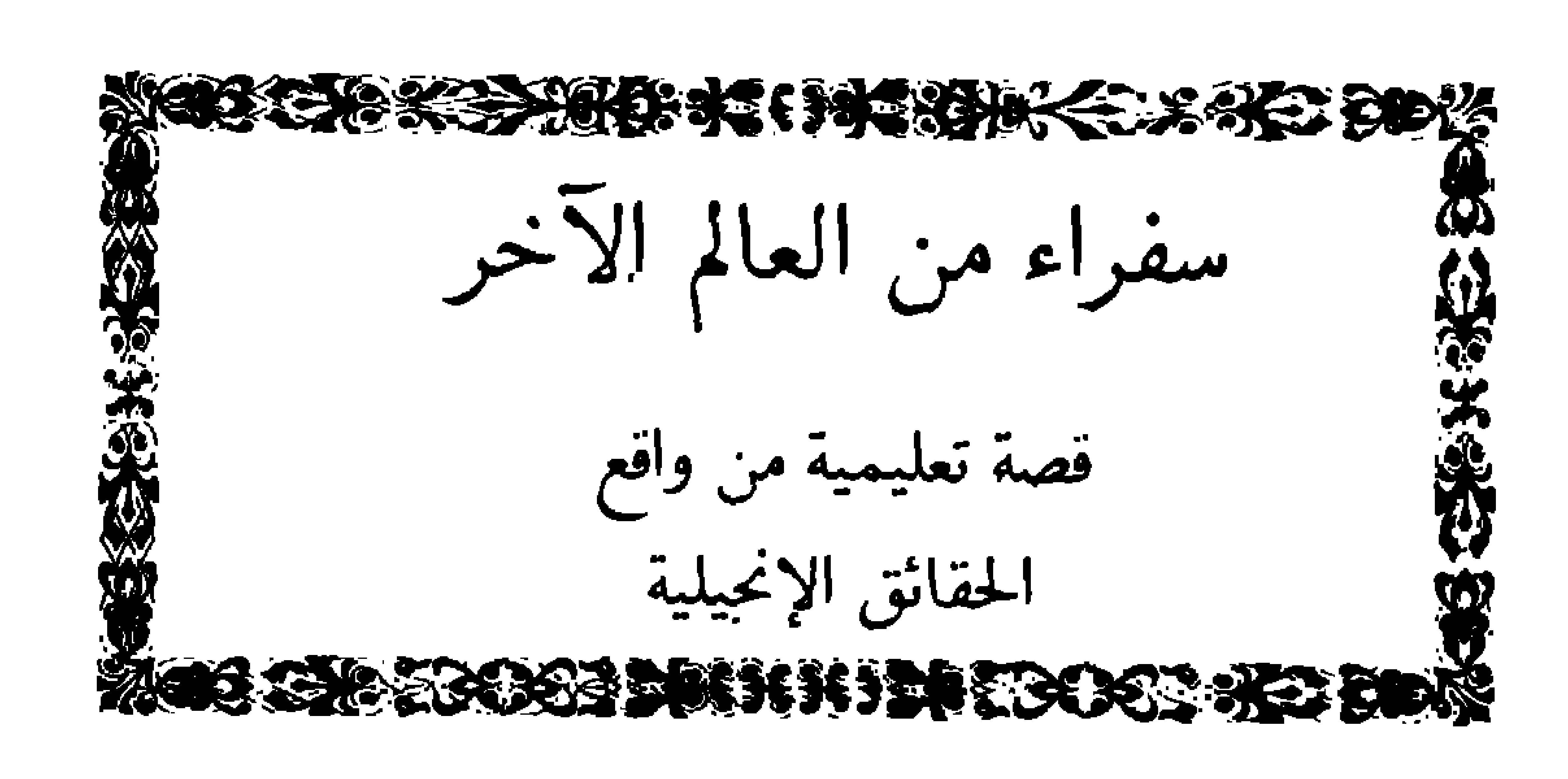
دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

قصص مسيحية للحياة

للأب متى المسكين

كتاب : **قصص مسيحية للحياة**
المؤلف : **الأب متى المسكين.**
الطبعة الأولى : ١٩٧٩
الطبعة الثانية : ١٩٨٦
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٨٦/٢٢٦٨
الترقيم الدولي : ٠ ــ ٠٢٦ ــ ٤٤٨ ــ ٩٧٧

المحتويات



سفراء من العالم الآخر

قصة تعليمية من واقع

الحقائق الإنجيلية

« والقبور تفتّحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا لكثيرين . » (مت٢٧ : ٥٢و٥٣)

+ « الذي فيه (في الروح) أيضاً ذهب فكرز للأرواح التي في السجن . » (١بط٣ : ١٩)

+ « وأما أنه صعد فما هو إلا أنه نزل أيضاً أولاً إلى أقسام الأرض السفلى ، الذي نزل هو الذيَ صعد . » (أف ٤ : ٩و١٠)

+ « فإنه لأجل هذا بُشّر الموتى أيضاً لكي يُدانوا حسب الناس بالجسد ولكن ليحيوا حسب الله بالروح . » (١بط ٤ : ٦)

+ « نزل إلى الجحيم من قِبَل الصليب » (القداس الباسيلي).

+ « الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثَقين بالذُلّ والحديد... أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطّع قيودهم... كسر مصاريع نحاس ، وقطع عوارض حديد... » (مز١٠٧ : ١٠ـــ١٦)

+ « أعطيت إطلاقاً لمن قُبض عليهم في الجحيم » (القداس الغريغوري).

+ « إذ صعد إلى العلاء ، سبى سبياً وأعطى الناس عطايا . » (أف ٤ : ٨)

+++

لا أتذكر من الماضي إلا ومضاته الإلهامية ، أما كل الإستعلانات عن مستقبل الزمان الآتي التي أراني الله إياها كما من خلال الضباب ، فالآن صارت كلها مضيئة أمامي ، كنت أشرحها في ذلك الحين دون أن أفهم منها إلا صورتها الحزينة عن شخص آتٍ من عند الله يحمل عار الأمة ، مُهان يُباع بثلاثين من الفضة ، أُعطي أن يشرب

كأس آلام ليست له، مع هجران وعذاب يفوق الخيال. فكان يختلط عليَّ الأمر، وكنت أحس في نفسي وكأني هذا المرسل، فكنت أتأوه وأنا في رؤ ياي وأقول: «أنا هو الرجل...»، لذلك كان ماضيَّ كله حز يناً لأني حملت آلام شعبي مُركَّزة في صورة هذا الآتي.

وحينما يطوف بي الآن هذا الماضي كحلقات تنبعث من أعماقي وأهمُّ بالبكاء كعادتي، يمنعني الروح و يقول لي: «لا تبكِ، فقد عبر زمان البكاء، هوذا الآتي قد أتى وهو وشيك أن يكمل كأس الألم عنك وعن كل بشر، ويختم على الزمن. يقيم و ينير أمامكم طر يق الحياة والخلود». وكان كلام الروح يفرحني و يلذذ نفسي جداً ويجعل الرجاء يشرق في أعماقي، كمصباح منير في مكان مظلم.

وكان الروح يلقِّننا ما هوعتيد أن يكون لخلاص سكان الأرض ولخلاصنا، نحن الجالسين في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد. فكان وعد الخلاص هذا يطرق وَعْيَنا باستمرار، بدقات متلاحقة لذيذة، كما تطرق الساعة دقاتها لإنسان يترقب ميعاد الخلاص، حتى نكون كلنا باستعداد الدخول في هذا الحدث العظيم لنكمل رسالتنا من جهة الشهادة للمخلِّص الذي طالما تكلمنا عنه بفم الله.

كنا مشدودين جميعاً إلى الأحداث التي كانت تجري على الأرض منذ بدأ المسيا ينادي بالتو بة و باستعلان ملكوت الله، وكنا في غاية الأسى والكمد بسبب الرفض المتواصل الذي كان يعانيه من خاصَّته، ولكن لم نكن أحراراً في تحركنا، إذ كنا شبه مأسور ين تحت حراسة مشددة من قوات الظلمة. غير أن الروح كان يعز ينا و يعرفنا عن الحق المزمع أن يحررنا...

كنا ــ صفوفاً صفوفاً ــ من نفوس الآباء والأنبياء والأتقياء لكل الأجيال والدهور، أشخاصاً في حُلل بهية منسوجة كنقط من النور الخافت، بشبه ذرات الضباب، ينشدون بصوت هادىء جميل نشيداً لا هو بالحز ين ولا هو بالبهيج، هو لحن الإنتظار، فيه

حياة مستمدة من الروح وليست منا، تعلمناه مما نحن فيه، إذ قد امتنع علينا في الجحيم التأمل في الماضي بآلامه وأحزانه، بسبب الرجاء الموضوع أمامنا. كما أنه كان يعزّ علينا الفرح بالآتى، إذ كان يحجزه عنا شؤم رباطات الموت التي أُوثقنا فيها، ويمنعنا عن التمتع بالنور بتوسط ستار من قوى الظلام الكريه.

نحن هنا معروفون بعضنا لبعض لأن الروح يلقننا الحق فيرفع عنا كل الحواجز، أي جهل المعرفة وموانع الإدراك، لأننا تخلّصنا جزئياً من عتامة الجسد. ولكن كان النور المنبعث من النفوس يتفاوت في البهاء. كان أبهجنا، بلا نزاع، إبراهيم الذي يحتضن ألوفَ ألوفٍ من النفوس الطيبة. ولكن لم يكن يخلو وجهه من خطوط حزينة ونقط سوداء.

وفي مقدمة الجمع ظهرت من بعيد نفسُ آدم، هائلةً حقاً وبهيةً، ولكن كان وجهه أيضاً حزيناً مشوهاً ومقطباً كأنه قد فقد شيئاً ثميناً جداً.

ولكن من بين هذه جميعها أُفرزت جماعة قليلة، قيل أنها مدعوة لمهمة عاجلة جداً وجليلة ليكونوا شاهدين لرحلة المسيح من الصليب للهاوية، ثم يعودوا معه ليبقوا معه على الأرض بعد قيامته زماناً قليلاً: داود وإشعياء ودانيال ويوئيل وآخرين... وكنت أنا واحداً منهم، كل الذين أُعطوا أن يتنبأوا بمجيء البار ويشهدوا له على ممر الدهور السالفة بروح النبوة!...

كان معروفاً لدينا أن الوقت قد قرب وأن الأرض تموج بأحداث هائلة، وأننا مدعوون بغاية السرعة للعودة إلى الأرض عندما تُفكُّ أغلالنا بمعونة روح المسيح، التي قيل أنه سيكون لها القوة والمجد والبركة والعزة لفكِّ أغلالنا من سلطان الجحيم بمجرد خروجها من الجسد المقدس على الصليب.

فاجتمعنا وصرنا ننشد معاً: لك القوة والمجد والبركة والعزة إلى الأبد آمين يا

عمانوئيل إلهنا وملكنا ... وأخيراً دنت الساعة التي ننتظرها، وهي لحظة أن يستودع البار روحه في يد الله.

كان معلّقاً على الخشبة، وقوى الظلام تملأ سماء الأرض كلها، حتى أخفت نور الشمس، وأخذت تصول وتجول في الهاوية. وفي لحظةٍ سَمِعْنا صرخة المسيح المدوية على الصليب، فانشقت حُجُب الظلام؛ وارتعدت سلاطين الهاوية وتزعزعت أساساتها. ورأينا نفس المسيح قادمة أشد لمعاناً من الشمس، متجلية ببهاء مجد لاهوته الذي لا تحدُّه السماء والأرض ولا ما تحت الأرض.

وفي الحال اجتُذبنا إليه، فطرنا إليه طيراناً، لأن قيودنا ومقيدينا سقطوا جميعاً تحت أقدامنا ووطأناهم كما يطأ الإنسان أعداءه في نصرة الروح الفائق القوة، فانطلقت حناجرنا تنطق للجالس على عرش مجده وتهتف للمسيح قاهر الموت والظافر بسلطان الجحيم.

وعندما صرخ المسيح بصوت عظيم قائلاً: «في يديك أستودع روحي»، كنا في موكب نصرته وهو ظافر برئاسات الظلمة وجنود الشر المحيطة، بعد أن جردهم من كل رتبهم على الصليب وأشهرهم جهاراً فاضحاً إياهم أمام كل ملائكته. وفي الحال تزلزلت الأرض أمام عيوننا وتشققت الصخور، ورأينا قبورنا وهي تتصدع علامة اندحار سيد الموت ورب القبور، القتّال للناس منذ البدء ـــ إبليس ـــ الذي بدأ المسيح يتعقبه إلى مواطن سلطانه في الهاوية.

رأينا نفس المسيح وهي مضيئة بلمعان أكثر من الشمس، متسربلة بالنور كالثوب في بهاء مجد الله، شيء لا تطيق عين بَشَرٍ أن تتطلع إليه وهي تحاصر الظلمة وتطاردها نحو الهاوية كما تطارد أنوار الفجر فلول الظلام.

سرنا خلفه نستنير بنوره، يحيط به ألوفُ ألوفٍ من ملائكته وربوات ربوات الخدام

الناطقين يقدمون له تسبحة الغلبة والخلاص... وفي الحال ارتجت أساسات الهاوية من بهاء عظمته وهو قادم بسلطانِ مَنْ أعطي الدينونة، ومَنْ أتى لفكّ أسرى الرجاء. رأيت في يده صَكَّ غفرانٍ، ممهور بختم من دم طري، أعطي أن لا يجف أبداً، وعليه أسماء كل الذين ماتوا على الرجاء وهم يطلبون وطناً أفضل. ورأيت وإذا من فمه يخرج قضاء حكم الله ببراءة المقيدين بالظلم بشبه سيف لهيب كنار آكلة. وحالما أحسّت به قوات الظلمة الحارسة، خرت صريعة مولولة، فانفكت قيود الموت وتحطمت مصاريع الهاوية، ونادى الروحُ بالعِتقْ، فخرجت صفوف صفوف القديسين تنشد نشيد الخلاص وتعطي المجد والكرامة للمسيح الذي فكَّ قيودهم الأبدية وخلّصهم من سلطان الموت والهاوية. وسجدوا للحي القائم في وسطهم وهو مشدود على صدره بمنطقة من نور بشبه الذهب اللامع وهو يخدم لهم الخلاص كرئيس كهنة، والروح واقف يأخذ من يديه ويمسحهم بالدم و ينفخ فيهم سِرَّ الآلام والمجد الذي صار من أجلهم ليصيروا شركاء في كل شيء. تُزكّيهم آلامهم وتعاذيبهم وأعراقهم التي قبلوها بسر التقوى. وفي الحال انطبع نور الصليب على جباههم كختم فداء بالروح، فانطلقوا يمدحون مجد نعمته الفائقة.

وكان المسيح يطعمنا بشيء كالمن و يسقينا من كأس في يده. كان حالما يلمس شفاهنا يتأجج الروح فينا كنار مطهرة، وفي الحال نتغير إلى صورته، ونزداد قرباً من المسيح ومن بعضنا البعض، وكأننا نتداخل معاً، كما يتداخل الشعاع في الشعاع، و بقدر ما كنا نقترب إليه كان ينطبع نور وجهه علينا فينصلح فساد صورتنا ونزداد شبهاً به، كصورة تتطابق على أصلها نقطة نقطة كما بيد فنان ملهم! ... وكنا بقدر ما نتغير إلى صورته نزداد إتحاداً به.

وهكذا استطاع أن يصعدنا من الهاوية، لأني رأيت وإذا الكل بدأوا يتحركون مع المسيح، مشدودين إليه يسيرون بسَيْره، لا يتبعونه وحسب، بل صاروا وكأنهم فيه وهو فيهم، لا يتحركون من ذواتهم بل كما يتحرك المسيح يتحركون ككيان واحد هائل يتحرك لا عن اضطرار بل بتآلف الحب وانجذاب المثيل للمثيل، تقودهم إرادة واحدة

تطهرت من كل نشاز.

كنا نترنم بكلام حلو عن المسيح وعن قيامتنا، وكان «هوشع» واحداً منا يردد القرار: «أين شوكتكَ يا موت. أين غلبتكِ يا هاوية» ...

وما إن جاء فجر الأحد حتى كنا قد أكملنا انطباق الشبه والمثال وصرنا واحداً معه، فخرجنا مع المسيح في موكب الظافرين كأعضاء في جسد، وعلى رؤوسنا أكاليل الإبتهاج محملين بمجد المسيح، بمواهب وعطايا وكرامات، بعد أن كنا مطروحين في ظلال الموت سبياً مسبياً مقيدين بالذل والحديد. تركنا وراءنا جحافل الظلام وهي تتقهقر تحت وطأة نور المسيح الغلاب، وهو صاعد بمجد الله يشق الهاوية شقاً ونحن من حوله.

ثم رأيناه وهو يلج القبر الذي وضعوا جسده فيه، كما يحطُّ النسر فوق عُشِّه، وبسلطان روح القداسة أقام الجسد من رقاده كجبار يفيق من خمر ثقيل. وفي الحال سَرَت في الأجواء العليا بشارة أن: «أعطي للمسيح المُلك والسلطان على الأحياء والأموات». وتعيَّن في الحال ملاكان بثياب برَّاقة لحراسة القبر الفارغ ولإعطاء أول بشارة.

وكانت بقايا الظلام على الأرض لا تزال، والناس يغطون في نوم عميق، ما عدا جماعة النسوة حاملات الطيب، اللاتى خرجن مع الظلام يتحسسن المسير في طرقات المدينة الضيقة صوب السور الغربي في أقصى الشمال، ثم جلسن و بالغم والحسرات والقنوط يعتصرن قلوبهن الرقيقة بالبكاء، ينتظرْنَ فتح الأبواب حتى يُقدِّمْنَ آخر خدمة لحبيب قضى على الصليب...

أما نحن الذين تعبنا لنكون معه شهوداً لقيامته، فخرجنا من قبورنا خروجاً ظاهراً بأجسادنا أيضاً ودخلنا المدينة المقدسة وتراءَينا لكثيرين من المعينين لرؤية الخلاص علانية وللحياة الأبدية، وقد عرَّفناهم بنزول المسيح إلى الجحيم و بكل ما حدث لنا في الهاوية، لكي لا نكمل بدونكم، ولتكون لكم شركة معنا في كل شيء...

كان دخولي المدينة المقدسة من السور الشرقي حيث المقبرة التي جعلوها بإسمي وهي بجوار السور. وقبل أن أدخل من الباب المسمى بباب الذهب، اشتاقت نفسي أن أرى حقل الفخاري الذي اشتروه بالثلاثين من الفضة، وكان بجوار السور من جهة الجنوب. دُرت حوله وأخذت أبكي: «أهذا هو الثمن المثمن الذي ثمنتم به فاديكم يا شعب إسرائيل؟»... ولكن الروح انتهرني وقال لي: «أسكت. لا تبكِ. فالثلاثون من الفضة حُفظت في السماء في حِرْزٍ مختوم، لتكون تذكاراً لفدائكم بالدم الثمين للبهجة والفرح».

وبمجرد دخولي المدينة دُرتُ متجهاً نحو السور الغربي لأكون قريباً من موقع ظهور الرب. وفي الحال صادفت شابين يجريان بحماس، أحدهما صغير لم يلتح بعد(١) والآخر بدأت لحيته في الظهور. كانا يتطارحان الحديث في همس، كمن يتوجس الخوف، وكانا يلهثان من سرعة الجري، وخلفهما شيخ وقور لا يقل عنهما حماساً، يجري متجهاً ناحية السور الغربي، كانت روحهم تكاد تحملهم من على الأرض من فرط تأثرهم بخبر قيامة المسيح، عرفتهم في الحال أنهم من التلاميذ، فاستوقفت الصغير فيهم وسألته عما يجري من أجله؟ فقال لي: «إن يسوع الذي صلبوه قد قام من الأموات».

ولكن كان في نبرات صوته دهشة كمن لا يصدق ما يقول. فقلت له:

ـ كيف تندهش، ولماذا لا تصدق؟ ... ألم يتكلم الآباء والأنبياء منذ الدهر بما هو حادث أمامكم اليوم؟ أليست هذه أزمنة الخلاص وتكميل الوعد بمجيء البار؟ أليس هو بنفسه سبق وأخبركم بأنه سيقوم في اليوم الثالث حتى إذا قام تكونون ليس مصدّقين فحسب، بل ومبشِّرين؟ فالآن صدّق، لأن الأمريقين، فيسوع هذا الذي صلبوه هو هو المسيا الموعود به منذ الدهر الذي تعيَّن لفكّ أسرى الأحياء والأموات، الأحياء من سلطان الخطية، والأموات من قيود ظلمة الجحيم. إذهب بشِّر إخوتك، لأن اليوم يوم بشارة.

---

(١) أي لم تظهر له لحية.

فـانـدهـش الشاب من كلامي، وسألني من أنت؟ وأخذ يتفرس فيَّ. فقلت له: أنا شهـدتُ بمـا لم أرَه وأخـبـرتُ بأمور لم أكن أعلمها، أنا الذي مزجت سِفْري بدموعي، أما أنت فقد تعينتَ لبشارة مفرحة لتشهد بما ترى وتخبر بما تعاين. فقال لي:

ــ هل أنت واحد من القديسين الذين رقدوا؟...

وحـاول أن يمسـك بي، ولـكـن الـروح أخفاني. فجرى الشاب وهو يصرخ نحو يوحنا و بطرس اللذين تبعاه، وأسلم رجليه للريح عائداً للزقاق ليخبر أمه. وكأنه يطير في الهواء مـن هـول الـفـزع والـفـرح اللذين ألمَّا به، لأنه تيقن أن خبر القيامة يقين لا محالة. وهذه كـانـت مـهـمـتـنا أن نحقق للمختارين خبر قيامة يسوع وحقيقة نزوله إلى الجحيم من قِبَل الـصـلـيـب وسـلـطانه الذي قهر به حراس الهاوية: الجحيم، وإطلاق من قُبض عليهم في الجحيم. مـن أجل هذا أُعطي لنا أن نظهر بأجسادنا علناً، ودخلنا المدينة المقدسة لنكون شهوداً عياناً لكل ما أكمله الرب.

و بـعـد قليل رأينا يوحنا و بطرس عائدين من السور الغربي في اندهاش. وكان يوحنا يُذكِّـر بـطـرس بمـا سـبـق وتـكلم به الرب. ولكن بطرس كان واجماً وكأنه لا يسمع ولا يفهم. اقتربت منهما فسمعت بطرس يقول: «لنذهبْ إلى الهيكل لعله يظهر هناك».

فـأمـرني الـروح أن أتـبـعـهما، وبمـجـرد أن اقـتـربـت مـن الهيكل هالني منظر مفزع، وتـمـلـكتني الحسرة، إذ وجدت الشيطان قائماً على محرسه فوق جناح الهيكل، وحوله جنود الشر مـنـبـثُّـون في الهـواء، تحـيـط بـه مـن كـل ناحية، بيدها سهام ملتهبة وأدوات حرب شنـيـعة، ولمحت بروحي نور الشاكيناه مطفأً ــ إعلاناً عن غياب حضرة الرب من قدس الأقداس ــ وهذا عندنا يُفهم أنه علامة محتمة بخراب البيت.

وسمعت صوتاً يقول: «إن الله غضب على هيكله وترك موضعه للخراب الساعي إليه بسبب خبث وشر القائمين فيه».

ولمـا سـمـعـت هـذا ارتـميت على العتبة لأبكي وأنطق بمرثيتي التي تلوتها على ما حاق

بالهيكل وميراث الآباء، ولكن منعني الروح وأقامني على رجليَّ قائلاً: «فهِّم هؤلاء التلاميذ بما رأيت وسمعت».

فتقدمت نحو بطرس و يوحنا وهما صاعدان على الدرج وحييتهما، وكلمتهما بكلام طيب حتى اطمأنوا إليَّ وأخذتهما على ناحية و بدأت أقول لهما علانية:

ــ «يا إخوة إن قيامة الرب التي أُخبرتم بها اليوم قد أنارت أمامكم وأمام الأرض كلها طريق الحياة والخلود. اليوم انتقلت عبادتكم لله من هذا الهيكل المصنوع بالأيادي إلى عبادة لا يحدُّها زمان أو مكان، إلى عبادة بالروح والحق. ألم يقُل الرب إنه تأتي ساعة تنتقل العبادة من هذا الجبل ومن أورشليم؟! لقد أضاء المسيح بقيامته المسكونة كلها، لقد أطفِئ نور الشاكيناه من هذا الهيكل إلى الأبد ليضيء الله في قلوبكم بحضرته، ألم يتكلم الله بفَم أنبيائه أنه سيسكن فيهم و يسير بينهم؟ اليوم حقق الله الوعد وهو عتيد أن يحل فيكم بروحه حسب وعده القدوس الذي تكلم به منذ الدهر، إحذروا اليوم أن تخلطوا بين عبادة الخيمة المطوية وعبادة الروح بكل ملء السماء، لا يصح يا إخوتي أن يجتمع عهد الموت وعهد القيامة. ولا توصلوا بين ناموس الحرف الآمر بالقتل لميراث الهاوية وناموس الروح في المسيح المقيم من الموت لميراث الحياة والسماء. ألا يكفيكم الزمان الذي عبر، هوذا المسيح قد قام وابتلع الموت إلى حياة، فإن رأيتم المسيح بعد قيامته يدخل الهيكل ادخلوه، ولكن إن رأيتموه صاعداً إلى السماء من حيث أتى فارفعوا قلوبكم وعيونكم وأيديكم إلى حيث يكون المسيح...».

وقف التلميذان مذهولَين، ولكن قلبهما كان ملتهباً فيهما يستجيبان لكل كلمة لأنهما سمعا من النسوة أن الرب سيظهر في الجليل وهناك يرونه، فتذكرا قول الرب: «هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً». فتيقنا أن ما قلتُهُ كان حقاً، ولكن كانا مندهشَين. فاقتربا مني يسألانني «من أكون؟» و«من الذي أرسلني؟» و«هل رأيت يسوع؟» فرفعت عيني نحو السماء وقلت:

ــ رأيت أورشليم مهجورة. جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب، وصارت

كأرملة. العظيمة في الأمم تبكي ودموعها على خديها.

□

ورأيت وإذا برجل قادم ناحيتنا، كان وجهه مضيئاً وروح الله حال عليه — هو دانيال — حيَّانا وقال للتلميذين: «إلى متى تثقل قلوبكم وتكلُّ أعينكم عن الرؤيا؟ أنظرا جيداً واقبلا روح النبوة، فالموعد قد صار لكم، وتحقيق الرؤيا معكم على ميعاد! هوذا النقمة قد أحاطت بالبيت وبأورشليم وبكل الذين يتاجرون باسمه، الذين سلبوا مجد الله لأنفسهم ...

وأشار دانيال بأصبعه نحو الهيكل والقدس والأقداس، فإذا جيوش الشر قد أحاطت به ورِجْسة الخراب على المحراب، ولما هممت بأن أبكي، كعادتى، على الميراث الثمين الذي حُكم عليه بالزوال، سمعنا كلنا صوتاً يقول:

— إفرحوا لأنه قد صار لكم في السماء بيتٌ غير مصنوعٍ بيدٍ، وملكوتٌ وعرشٌ وقُدْسٌ لا يفنى ولا يزول.

وفي الحال انفتحت أعيننا، والتلميذان معنا يريان ويسمعان، وإذا السماء مفتوحة ودانيال بجوارنا يهتف:

— ها هوذا المسيح القائم من الأموات صاعدٌ إلى الآب. الآن دخل ابن الإنسان إلى القدس السماوي. إفرحي أيتها السموات وهللوا يا سكان الأرض. وهوذا يقرِّبونه إلى عتيق الأيام. فدُفع له كل سلطان مما في السموات وما على الأرض. إفرحي أيتها السموات وهللوا يا كل الشعوب والأمم والألسنة. الآن أعطي للمسيح المُلك الأبدي، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا يفنى...

ونظر التلميذان، فإذا هما وحدهما وصارا يتلفتان، فلم يجدا أحداً، فعلما أن الأمر رؤيا، وكانا متحيرين، فانحدرا من فوق درج الهيكل وقفلا راجعين إلى الزقاق وهما غير فاهمين ما الذي حدث.

سرنا خلفهما دون أن يروننا متجهين صوب الزقاق، وإذا بقية النسوة عائدات من البستان ومريم المجدلية تقول إن الرب قال لها: «لا تلمسيني، لأني صاعد إلى أبي وأبيكم، إذهبي أخبري إخوتي أني أسبقكم إلى الجليل». ففهم التلميذان أن الذي رأياه على درج الهيكل كان رؤيا صحيحة، فكاد قلبهما يطير من الفرح!...

ولكني كنت متعجباً من بطء إيمان التلاميذ، مما ترك في قلبي حسرة بالغة، لأن الرب ما ترك شيئاً إلا وسبق وأنبأ به.

□

و بينما أنا في حزني وكآبة قلبي بسبب هذا الأمر، إذ بي ألمح رجلاً بهياً يسير خلفنا وكأنه يعدُّ خطواتنا، فاستوقفت دانيال وقلت له: مَن ذا الذي يتبعنا؟ فقال لي ألا تعرفه، إنه يوئيل، جاء ليرد إليك فرحك. وفعلاً ابتدرني يوئيل قائلاً:

ــ لا تحزن ولا تكتئب، نحن أخذنا روح النبوة، أما هؤلاء التلاميذ فلا يزالون يواجهون صعاباً فوق الطاقة، لأنهم لم يأخذوا هذه العطية بعد. وقد أرسلني الرب لأهيىء قلوبهم لانسكاب الروح، لأنه بدون عطية الروح لا يستطيع أحد أن يقول إن المسيح رب، لأن الشهادة للمسيح تحتاج لروح النبوة. هوذا قد علمت أنه في هذا المساء سوف ينفخ فيهم المسيح من روح قيامته ليحل عليهم روح النبوة وسلطانُ فكِّ النفس من رُبُط الشيطان و وثاقات الخطيئة. ألا ترى معي أن سر عجزهم عن التعرف على أشخاصنا وأسمائنا هو بسبب غياب هذه العطية؟

تركنا يوئيل معهم ليؤدي مهمته، وذهبنا إلى الجلجثة، لأن الروح كان يلح علينا أن نسرع لنعمل عملاً سبق الله فأعده لنا. وصلنا الجلجثة وكانت الساعة التاسعة، فسمعنا أصواتاً صادرة من السماء فوق المكان تتجاوب أصداءَها السماء والأرض بلحن ملائكي بهيج جداً. وكان قرار النشيد: «أنا صرخت إلى الله والرب سمعني».

□

ولما افترىنا من المكان حيث كان الصليب الذي صُلب عليه الرب لا يزال قائماً، وجدنا رجلاً جالساً هناك على صخرة، وكانت رجله متورمة وملفوفة بضمادة، و يبدو أنه كان متألماً بسببها، وقد انحنى يخطط على الأرض بعصاته وهو متجهم الوجه حز ين، عرفناه في الحال ... إنه نيقوديموس معلم الناموس الذي حاجج الرب من جهة صعو بة تجديد الإنسان، لأنه كان يبني عقله بالمعرفة وليس بالإيمان، وهو الذي أنزل جسد الرب من على الصليب وحمله مع يوسف الرامي. وللأسف لم يستفد من حمله للجسد المقدس شيئاً، لأن روحه كانت محصورة في المجد الدنيوي والمظاهر المحسوسة، وكان إيمانه ممسوكاً بالحرف والمعقولات.

هذا كان قد ذهب للقبر في الصباح لأنه سمع خبر القيامة ولم يستطع أن يصدقه، وأخيراً بدأ يشك في موت المسيح، إذ قال في نفسه: لربما لم يمت المسيح على الصليب! أو دفنوه ولا تزال الروح فيه!... من أجل هذا جاء إلى الجلجثة ليستوثق من كمية الدم التي نزفها الرب، ولدهشته التي أفقدته كل إيمانه أنه لم يجد أي أثر للدماء لا على خشبة الصليب ولا على الأرض، لأن مريم المجدلية ذهبت إلى المكان في فجر السبت وجمعت كل الدم الذي كان قد جف على الخشبة والذي سقط على الأرض، كمية كبيرة، وضعته في وعاء في بيتها بكل اعتناء وتكريم ورهبة. ولكن الذهول أصابها، إذ بعد أن وضعته عادت فلم ترَ ولا ذرة واحدة في الإناء، والإناء يشع منه نور أزرق خافت.

□

و بينما نيقوديموس مستغرق في تفكيره تلعب به الظنون وتعصف به الشكوك، نظر وإذا برجل أشيب، مدَّثر بثوب أبيض، يقف أمامه يحييه و يسأله عن سر جلوسه الحز ين في هذا المكان وهل سمع بقيامة يسوع؟

أما نحن فعرفناه من بعيد: إنه إشعياء عظيم الأنبياء، وبجهد متكلف حاول نيقوديموس أن يتجاهل السؤال، وظل يخطط على الأرض لأنه كان قد صمم أن يتخلص

من كل علاقة تربطه بالمسيح، لا بسبب الشكوك فقط ولكن خوفاً على مركزه في السنهدريم.

فتحنن عليه إشعياء وسأله عما برجله؟

فقال له: جرح قديم لم يبرأ وقد عرضته على أطباء كثيرين فلم يُشفَ وصار إلى أردأ.

فقال له إشعياء: لو رآه يسوع لشفاه لك!

فصمت نيقوديموس ولم يرد...

فعاد إشعياء يسأله: وما رأيك في هذه الأخبار الجديدة؟

فحاول أن يتجاهل كل شيء أيضاً قائلاً: أية أخبار؟

قال إشعياء: يسوع الذي قام ورأته النسوة وتكلمن معه!

أخيراً بدأ نيقوديموس يفصح عن شكوكه:

— نعم سمعت، ولكن لا أصدق، فأنا الذي أنزلت جسده من فوق الصليب ميتاً تماماً، ولكن الذي يحيرني أنني جئت إلى هنا متحاملاً على نفسي ومحتملاً آلام رجلي، لكي أستوثق من كمية الدم التي نزفها يسوع على الصليب، لأني أسائل نفسي لربما لم يكن المسيح قد مات تماماً، ودفناه والحياة فيه؟ ... ولكن أنا الذي كفنته، وكان الجسد المسجّى أمامي بارداً تحت يدي ورأيت بنفسي الجرح العميق أثر الحربة التي طعن بها جنبه، فقد كانت كافية أن أدخل فيها قبضة يدي بجملتها، وقد حشوتها بقطعة قماش كبيرة ... مستحيل مستحيل ... لقد مات تماماً. ولكن أين الدم الذي نزفه؟ أنا متحير...

ولكن، فلنفرض أنه مات ولنفرض أنه قام، مستحيل أن يكون هذا هو المسيا، هل من المعقول أن المسيا يُهان و يُفتضح و يُذل هكذا بهذه الشناعة حتى الموت علناً أمام الدنيا بأسرها، وقد كمّل رؤساء الكهنة فيه كل أحكامهم ونقمتهم الخفية، ثم لا يتدخل الله قط ولا بحركة واحدة ليرد له اعتباره أو يثبت حقه أمام الشعب أو أمام الرومان؟ ...

ثم يقوم سراً ولا يراه إلا القليلون؟... لقد ندمت لأني كنت أدافع عن يسوع لدى زملائنا والرؤساء. والآن ليس لي وجه أرفعه أمام المجلس...

□

فابتدأ إشعياء يرد عليه بهدوء:

ــ أأنت معلم الناموس ولم تفهم بعد كل هذا الذي تم أمامك. أليس هذا ما قاله إشعياء بالحرف الواحد عن المسيا الآتي: إنه يكون محتقرٌ من الناس ومخذول من الرؤساء، إنسان أوجاع مختبر الحزن، مضروب ومذلول حتى إلى جرحه هذا المميت ــ الذي رأيته أنت بعينيك ولمسته بأصابعك. وفي النهاية يُقطع من أرض الأحياء ويخسر قضيته بسبب اتضاعه وعدم دفاعه! حتى أن رجلاً مثلك لا يستطيع أن يرفع وجهه للدفاع عنه، والكل يخفون وجوههم عنه حسرة بسبب صورته التي صارت مفسَدة أكثر من كل بني البشر؟ مع أنه كان في النهاية ذبيحة إثم يكفِّر بها عن شعبه؟

فاحتدّ نيقوديموس على محدثه قائلاً:

ــ ومن أنت حتى تعلمني أقوال إشعياء؟ أو تشرح لي الناموس والأنبياء؟ أنت رجل عامي لا علم لك ولا معرفة، أما أنا فمعلم الناموس. إن إشعياء الذي تتكلم عنه لم يتنبأ بهذا عن المسيا، بل كان يتكلم عن شعب إسرائيل الذي وُضع عليه أن يتألم كرجل واحد بسبب خطاياه، لأن شعب إسرائيل كان يخاطبه الله كإبنه البكر!

فأجابه إشعياء:

ــ أنتم أيها الناموسيون تفسرون كل شيء بحسب هوى أنفسكم وتعوِّجون الشرح والفتوى لتناسب أحوالكم وآمالكم وطموحكم. تطمسون معالم الحق حتى ولو كان ناطقه هو الله وتتنكرون للصدق وللناطقين به إذا كان فيه افتضاح لسلوككم وأخطائكم. تطلبون الكرامة لأنفسكم كأساس لكل تعليم أو شرح، وتتكرهون طريق الآلام والبذل والمهانة حتى ولو كان فيها خلاص للناس ومجد لله، لذلك لا تصدقون أن

يـأتي المـسيا بالخلاص عن طر يق الآلام والإنسحاق والبذل واحتمال المهانة . ولكن أين تهـر بـون مـن قـول الله على فم إشعياء أن المسيا الآتى سيحمل ذنب شعبه؟ وأنه إن جُرح فـلأجـل مـعاصينا؟ وإن سُحق فمن أجل آثامنا؟ وإن ضُرب فلكي يشفينا؟ وأن تأديبنا وسـلامـنـا سـيحمل هو هوانه على نفسه؟ و يقول الرب أنه وضع عليه إثم جميعنا . ثم يتبنى إشـعـيـاء بـعـد ذلك جهلكم وعنادكم وغباوتكم و يقول: ونحن حسبناه مضرو باً من الله ومذلولاً!!

فأوقف نيقوديموس الحديث فجأة وتفرَّس في إشعياء بخوف قائلاً:

ــ على من تعلمت من الر بيين أيها الزميل؟

فأجابه إشعياء:

ــ لماذا تسألني عن علمي ومصدر علمي، فالكلام يشهد لنفسه، أنا لست زميلاً ولا مـعـلـمـاً ولا مـتـعـلـمـاً. ولـكـنـنا نتكلم بما رأيناه ونشهد لما علمناه، ولكنكم اكتفيتم ببر أنـفـسـكـم، وتبررتم بعلمكم الذي تقلدتموه من بعضكم البعض، فرفضتم مشورة الله من جـهة أنفسكم. أنكرتم صوت الله على فم يوحنا المعمدان، لأنه لم يكن معلماً للناموس مع أن الله هـو الذي أرسله أمام وجهه ليعد طر يق المسيا، فضاع منكم الطر يق وضاع منكم الـبـاب، وأنـكـرتم المـسيا لأنه لم يكن كاهناً منكم، فجحدتم روح الله الذي كان يكهن فيه.

فـأخـذت نـيقوديموس رعدة شديدة، ولكنه عاد سر يعاً إلى عقله وعناده، لأن تمسكه بـشـرح الر بيين وافتخاره بعلمه وانضباط عقله وطلاقة لسانه أعطاه روح ملاججة لا تلين ولا تقتنع بشيء حتى ولو كان الحق ظاهراً.

فعاد نيقوديموس يلاجج إشعياء بقوله:

ــ أنـت لا تفهم ما يقوله إشعياء، فالمسألة ليست علماً ولا هي مجرد تسليم كما تظن. وأنـت تهاجمنا لأنك رجل أمّي، والأمّي يكره المتعلمين بطبيعته. نحن نعرف الحق من الله

رأساً فمعلمونا سلّموناالإلهام قبل أن يسلمونا العلم . ألم تسمع عن مدرسة الأنبياء ؟ وكيف كانت تورّث النبوة ؟ إن إشعياء كان يرى جيلاً من الشعب يأتي ويحمل أوزار الآباء السابقين وخطاياهم فيتألم عنهم كما يتألم رجل واحد عن كثير ين . أما المسيا فمعروف أنه يأتي ملكاً مكرماً تكرمه كل الأرض ، يحارب و يغلب و يعطي المُلك لإسرائيل ، و يكون الله معه ، و يكون سيداً على كل ممالك الدنيا ويخر و يسجد له كل ملوك الأرض معطين الجز ية له ، وأعداؤه يلحسون التراب كما تلحس الكلاب أقدام سادتهم ...

فأجابه إشعياء :

ـــ أنت تتكلم بالأرضيات أما نحن فنتكلم بالسمو يات ، أنت ترى سلطان المسيا على أعداء أرضيين ، وسيادته وملكه فوق أمجاد ملوك أرضيين ، وأنه بقوته الجسدية سيشهر سيفه ليقتل أعداءه و يسكنهم تراب القبور! أما نحن فنرى سلطان المسيا ليس على قوات وجيوش أرضيين بل سلطانه ونصرته تكون على قوات الظلمة وسلاطين الجحيم وأنه أُعطي بالروح أن يفك سلاسل الهاو ية ومصار يعها و يقيم قتلى الخطيئة و ينعم على الذين في القبور بالحياة الأبدية ، لأنه دُفع له كل سلطان مما في السماء وما على الأرض وما تحت الأرض .

أوقف نيقوديموس إشعياء فجأة من عمق تأثير الكلمات مقتر باً منه متوسلاً :

ـــ سيدي أرى أنك معلم . فبحق يهوه قُل لي من أنت ؟

أجابه إشعياء :

ـــ أنا ما أنا وماذا يعنيك من شخصي ؟ ألا يكفي أن تقبل الحق من أجل الحق ؟ ولكنكم تنظرون إلى الوجوه وتكرمون الأسماء والألقاب وتقبلون الكرامة من بعضكم البعض فسلبتم كرامة الله وأهنتم الحق باسم القانون والمنطق والناموس . ورفضتم صاحب الحق لتبقى لكم الألقاب والأسماء والكرامات . وعوّجتم تفسير الأنبياء لتظلوا أوصياءَ على عقول الشعب .

فعاد نيقوديموس يحاجج إشعياء:

ــ نحن لم نسلب كرامة الله، بل نحن بأمانتنا للناموس صرنا حَفَظَةً على كرامة الله. ونحن لم نرفض الحق ولا أصحاب الحق ولكننا بالمعرفة صرنا قوّامين على الحق واسْتُؤمنّا على مفاتيح السموات، ونحن لم نعوّج تفسير الأنبياء لنكون أوصياء على الشعب، بل هذا يتراءى لكم أنتم عامة الشعب بسبب جهلكم بالشريعة والناموس وبحكمة الأنبياء، فمن أنت حتى تعرف أعماق حكمة إشعياء التي لا تنكشف إلا لعلماء الناموس العارفين بدقائق الشريعة.

وأنا مندهش كيف تقول أن المسيا يمكن أن يُهان مهانة العبيد و يعذَّب و يُقتل و يصرخ على الصليب و يطلب معونة إيليا فلا يُسمع له، كيف يظهر المسيا هكذا كعبد، وكعبد مرفوض مذلول يتسلط عليه الرومان ويحكمون بقتله؟ مع أنه معلوم لدينا علم اليقين أنه سيبقى ملكاً إلى الأبد وسيعيد عظمة داود و يرفع هامة إسرائيل وسط كل شعوب الأرض، فمن أين أتيت بمعرفتك وشرحك هذا لإشعياء؟

فعاد إشعياء بهدوء يرد على نيقوديموس:

ــ أأنت معلم إسرائيل القوّام على الحق والحافظ للناموس والأنبياء ولا تريد أن تفتح أذنك لقول إشعياء لتدرك حقيقة المسيا العظمى كيف أكمل الخلاص بالمهانة واستُعلِن نوراً للأمم بقبوله أن يكون عبداً للمتسلطين. ولكن كبرياءكم حجز عنكم سر الخلاص والنور. اسمع ما يقوله إشعياء بالحرف الواحد: «والآن قال جابلي من البطن **عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي، فهل هو قليل أن يكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل. هوذا قد جعلتك نوراً للأمم لتكمل خلاصي إلى أقصى الأرض، هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه، للمهان النفس لمكروه الأمة لعبد المتسلطين.»**

(إش ٤٩: ٥ــ٧).

وهكذا أنتم أيها الناموسيون قد أعثرتم في المسيا، لأنكم لا تحتملون المهانة في سبيل

إعـلان الحـق ، ولا تـقبلون طر يق الإتضاع من أجل تكريم الله وخدمته. والآن فإن كنتم تـطـلـبـون الـكـرامة لأنـفسكم فكيف تقبلون المهانة لسيدكم ؟ وهكذا إذ رفضتم طر يق الإتضاع بأسلوب حياتكم رفضتم المسيا من كلِّ قلو بكم وأنتم لا تدرون مع أنه مكتوب: «**أمـا الـرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن** إذ قد جعل نفسه ذبيحة إثم... من أجل **أنه سكب للـمـوت نـفـسه**... حتى يحـمـل **خـطـيـة الـكـثـيـر يـن و يـشـفـع في المـذنـبين.**» (إش ٥٣: ١٠و١٢)

ولـكـن بـقـدر ما تنازل المسيا قابلاً المهانة آخذاً شكل العبد، بقدر ما حاز سلطاناً أن يفدي من المهانة كل العبيد ليعيد لهم صورة الله، و بقدر ما انسحق بالظلم ساكباً للموت نـفـسـه بـقـدر ما استطاع أن يفدي من الظلم كل من مات، و يقيم من الموت كل أسرى الـرجـاء. إسـمـع مـا يـقوله في ذلك الله على لسان إشعياء: «هوذا عبدي يعقل (بقدر ما عـمـل بـالـفطنة) هكذا يتعالى و يرتقي و يتسامى جداً حتى أدهش الكثير ين، و بقدر ما ارتـضـى شـكـلاً كـذا مـفـسـداً أكثر مـن كـل رجـل استطاع أن **ينضح قداسة** على أمم كثير ين و يتعالى على ملوك الأرض...» (إش ٥٢: ١٣ــ ١٥)

أجاب نيقوديموس:

ــ يا سيدي أرى أنك معلم، ولكن أنا مندهش ممن تعلمت. هوذا أنا أدرس إشعياء على أعـاظـم الـر بـيين أر بعين سنة، فما سمعت تفسيراً مثل هذا قط. هل أنت أعظم من هـالـيل أو غمالائيل؟... إن كلامك يا سيدي يهز كياني كله، ولكن كيف أتخلى عن ما تـعـلـمـته؟ وهل ممكن لمعلم مثلي أن يصير تلميذاً مرة ثانية في لحظة؟ هل أنت نبي؟ وإن كنت نبياً فماذا تعطيني من البرهان على صدق ما تقول؟...

فـأجـابـه إشعياء وقد التهب وجهه وصار بحمرة السماء وقت الغروب ورفع صوته حتى تجاو بت أصداءه السماء:

ــ وأي بـرهـان أعـظـم ممـا صـنـع يـسـوع أمـام عـيـونكم؟ يموت البار من أجل أثمة

و يُصلب المسيا بإرادته في ضعف ومهانة العبيد ليقوم بذراعه في قوة ومجد الله !! ولكن لقد صح فيكم قول إشعياء : «مَنْ صدّق خبرنا ولمن استُعلنت ذراع الرب» (إش٥٣ : ١).
أنت تطلب برهاناً وآية : إسمعي أيتها السموات واقشعري يا أرض ، الثور يعرف قانيه والحمار مِعْلَفَ صاحبه ، ومعلمو إسرائيل لا يريدون أن يعرفوا ، سدُّوا آذانهم عن السمع وأغمضوا عيونهم عن الرؤيا ، تطلبون آية ولا تعطى لكم إلا آية المسيح مصلوباً .

ومن علو صوت إشعياء تزلزل المكان ، وفي لحظة اختفى إشعياء من أمام أعيننا . ومن هول الموقف دار نيقوديموس حول نفسه وهو مادٌّ ذراعيه ، وفقد توازنه فسقط على الأرض . وفي الحال دخل في رجله المتورمة مسمار كان ملقى على الأرض ، دخل إلى منتصف طوله ، فصرخ نيقوديموس من هول المنظر، فجئناه على عجل ، ومددت يدي وانتزعت المسمار من رجله ، فخرج بسهولة ، لأن رأسه كانت كبيرة ، ولكن خرج من موضعه نزيف دم فاسد . فإذا بالورم يذهب في الحال ولا يوجد له أثر، فوقف نيقوديموس على رجليه الإثنتين وألقى بعصاته على الأرض و بدأ يدب برجله المريضة على الأرض ليستوثق من شفائها وهو مذهول ومتعجب ينظر إلينا ، و يتلفت على إشعياء وهو ممسك بالمسمار يفحصه باندهاش ـــ لأن آثار دم كانت ناشفة عليه ـــ إنه هو نفس المسمار الذي خلعه نيقوديموس بيديه من رجلي المسيح اللتين كانتا مدقوقتين معاً في خشبة الصليب!

وقليلاً قليلاً بدا وكأنه يتذكر حقيقة عظمى ، وفي الحال بدأت تتغير ملامح وجهه وهو ناظر إلى السماء وكأنه يرى المسيح ويخاطبه ، ثم بدأ يبكي ويهتف : «ربي ، ربي يسوع أنت هو هو المسيا . يسوع المسيا ، بالصليب صار لنا الخلاص و بالمسامير الشفاء» .

ورأينا وكأن شعاعاً من نور بدأ ينقذ عقله من ظلمة الحكمة الهيولانية ويهبه نور الحكمة السماوية .

تقدمنا إليه فرحين ورأينا نعمة الله حالة عليه ، فقلت له :
ـــ هوذا الآن قد صرت متعلماً من السماء ، ولا تحتاج أن يعلمك أحد بعد . هوذا قد

صرت أهلاً أن تولد من فوق، الآن قم اْذهب سر يعاً إلى بيت التلاميذ الذي في الزقاق المدعو زقاق المسيحيين وأخبرهم بكل ما رأيت وسمعت، داعياً باسم الرب لتشهد مع إخوتك بالصليب والمسامير وآلام الرب المُشفية المُحيية، لأن ليس وخز المسمار هو الذي شفاك بل هي آلام الرب المحيية التي للخلاص التي وخزت قلبك المتورم بالحكمة العقلية الغاشة.

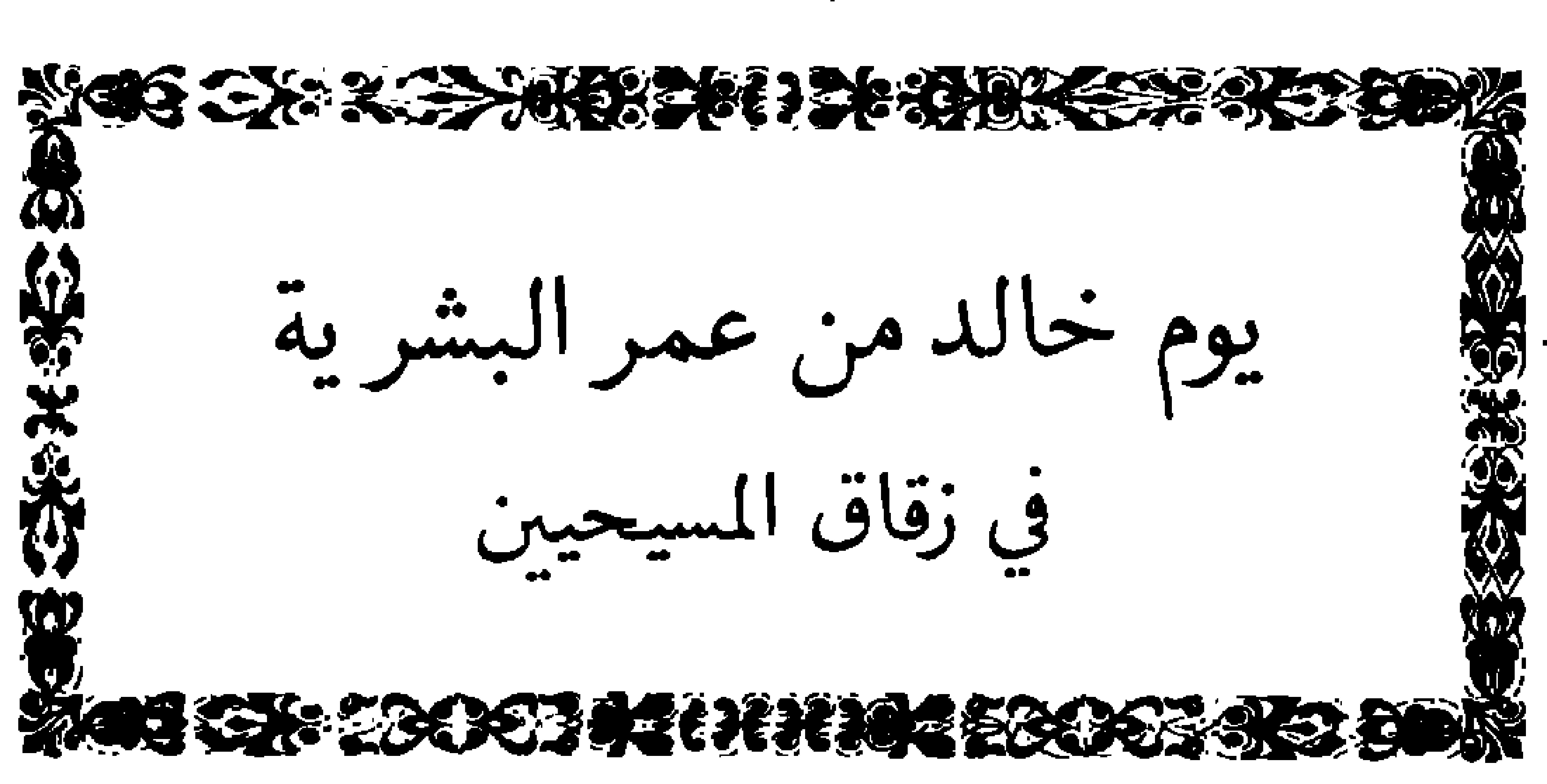
واعلم أنه كما من قِبَل الصليب والآلام صار لك اليوم شفاء بالجسد وخلاص بالروح وإيمان بالقيامة، هكذا من قِبَل الصليب نزل المسيح إلى الجحيم وفك قيودنا. ونحن الآن قيام مع الرب لنكون شهوداً معكم بذلك.

وتركناه وهو في ملء الفرح والإندهاش ورأيناه يجري صوب الزقاق.

□ تنبيه لذهن القارىء : لا يفوت على القارىء أن الحديث ابتدأ دون ذكر أسماء، ولكن الذي يدقق يعرف من مجرى الكلام مَنْ المتكلم. فمثلاً المتكلم الأول هو إرميا النبي (روحه)، وكذلك بقية الكتاب. لذلك لزم التنبيه.

---

(٢)



يوم خالد من عمر البشرية

في زقاق المسيحين

— ١ —

كـان ذلـك في أورشليم ـــ مدينة السلام ـــ الجالسة على رابية عالية من رُبى اليهودية الخضراء، تنعشها نسمات البحر الأبيض الذي لا يبعد عنها أكثر من ٣٠ ميلاً غرباً، أما شرقاً فيطل عليها جبل الزيتون بخضرته الداكنة وذكراه العطرة التي ضربت جذورها في أعماق الوعي الكنسي على مدى الأجيال. فمن ذا الذي لم يسمع عن رحلة أحد الخوص، أي أحد **السعف**، وغصون **الزيتون** وتسبيح الأطفال للملك الآتي **بالسلام وديعاً ومنتصراً** وجالساً على آتان يهتفون أمامه «مبارك الآتي باسم الرب»؟

لقد أتى رب السلام فرفضوا سلامه وأخذوه خارج المدينة وصلبوه... ومنذ ذلك اليوم لم تعد مدينة السلام.

لقد مضى الآن خمسون يوماً على الفصح منذ أن صلبوا المسيح، وحل ميعاد عيد الخمسين، وهو العيد الثاني من أعياد اليهود الثلاثة: الفصح والخمسين والمظال. وهوذا الحجاج الآتون من جميع أنحاء العالم لم يبرحوا أورشليم بعد، منذ أن أقاموا الفصح، لأنه هكذا عادة الحجاج في كل سنة يقيمون الفصح و يتعوقون في المدينة حتى يحضروا عيد الخمسين ولا يغادرون إلى بلادهم إلا بعد أن يفرغوا كل حنينهم نحو الوطن الأم بلاد الآباء والأنبياء وذكريات حب الله مع شعبه «لأن عبيدك قد سُرُّوا بحجارتها وحَنُّوا إلى ترابها» (مز١٠٢: ١٤). فكانوا يطوفون بالبلاد كلها يتزودون بالبركات حاملين في صدورهم أجمل الذكرى لكافة المواضع والأسماء، وحفنات من تراب الهيكل مصرورة في أكياسهم، وكأنها زاد للكورة البعيدة أو دواء يضمدون به جراح الغُربة حينما تُبرِّح بهم تباريح الذكرى، ويهيج في صدورهم الحنين إلى الوطن المهجور.

وأخيراً جاء يوم الخمسين، أشرقت شمس ذلك اليوم في سماء فلسطين مبكرة، لأنها أيام صيف، واليمامة غنَّت وملأت ربوع الأرض كلها كما يقول نشيد الأناشيد. ومنذ الفجر بدأت جموع حجاج اليهود تتزاحم نحو الهيكل مستوطنين وغرباء، جاءوا من بلادهم البعيدة سيراً على الأقدام إيفاءً لنذر الحج. (١)

وقد بدا الكل بملابس مزركشة متعددة الأشكال تكشف عن هويتهم، جاءوا من كافة بلاد الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف «يهود رجال أتقياء من كل أمة تحت السماء: فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين (دجلة والفرات) واليهودية وكبادوكية و بُنْتُس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبيا التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعُرْبٌ.» (أع ٢: ٥ــ ١٠)

أما الرومان اليهود فكان معظمهم من العبيد الذين حررهم سادتهم وهم المدعوون «الليبرتينيون»، وكانوا جالية كبيرة ولها مجمع كبير في أورشليم.

فكانت الجماعات المتزاحمة ذات لغات مختلفة لا يكاد الواحد يعرف لغة الآخر. وقد فقدت العائلات لغة بلادها في فلسطين، وفقدوا أيضاً لغة العبادة وطقس صلواتهم، بل وفقدوا كل شيء إلا المال، وذلك من طول استيطانهم في البلاد البعيدة... ولكن تيقظ الرؤساء لهذه الكارثة، فأقاموا في أورشليم مجامع كثيرة خاصة تقام فيها العبادة والصلاة بلغة بلادها، كل جنس بلغته، وخاصة ليعلموهم دفع الضرائب المستحقة على الغريب، والتي كانت متعددة الأنواع، فضريبة الهيكل شيء والعشور الأساسية والعشور الثانوية (وهي التي يتحتم على الحاج أن يصرفها في أورشليم قبل عودته بدون مراقبة)، شيء آخر. أما في عيد الخمسين فكانت له ضريبة خاصة وهي «الباكورات» بحسب الشريعة.

وكانت هذه المجامع تقوم بإيواء بني جنسها، فقد وُجد محفوراً على جدران حائط مجمع

(١) يلاحظ أن أصل كلمة «حاج» هي مقتبسة من «هاجيوس» باليونانية. فالحج هو التقديس.

يدعى مجمع الإسكندرانيين في أورشليم (حفائر سنة ١٩١٣؛ راجع أعمال الرسل ٦:٦)، مكتوبٌ هكذا: [جميع الغرف وخزانات المياه محجوزة للحجاج].

وكانت أورشليم في ذلك اليوم تعج بأعداد هائلة، ولكن ليس من يشكو من عوزٍ في إقامة أو نقص في مأكل، لذلك شاع قول مأثور أن إيواء حجاج أورشليم كان عجيبة من عجائب الله في أورشليم ــ وكانت تُسمع أغانيهم الوطنية وترانيم المزامير بكافة لغات الأرض، وكأن الله قد أعد كل الآذان والقلوب ليقول كلمته...



٥

— ٢ —

كانت الساعة التاسعة صباحاً (الثالثة بالتوفيت اليهودي، لأن السادسة صباحاً هي الساعة الأولى)، وكان السائر بين هذه الجماعات المختلفة يستطيع أن يتبين حديثاً واحداً مشتركاً بينها جميعاً كان قد سيطر على الأفكار والقلوب بصورة ملحة، وهو الحديث عن يسوع الذي صُلب في عيد الفصح وتأكد ببراهين كثيرة ورؤية علنية من أناس أتقياء أنه قام من الأموات وأنه حي!!

وكان الحديث عن يسوع يثير حماساً مكبوتاً وشوقاً ولهفة وسؤالاً حائراً: أيكون هو المسيا الموعود الآتي؟ أيكون قد بدأ تحقيق الرجاء الذي عاش له الآباء والأنبياء على مدى كل الأجيال؟...

وكانت لهفة الجموع وشوقها وحنينها القلبي الصادق من جهة مجيء المسيح والعوز إليه قد بلغ قمة التوتر الإيماني، الذي كاد أن يدفع عجلة الزمن لتبلغ النهاية بالقوة، بإيمانِ مَنْ فاض به الإنتظار... نعم فقد أُعطي للإنسان أحياناً سلطان أن يحرك الزمن بل يحرك قلب الله!

كانت صلاة العيد في الهيكل على وشك الإبتداء، وكان الجو هادئاً والشمس صحواً والصباح في أبهج ساعاته. وفجأة سُمعت ضجة في زقاق ضيق متفرع من أحد الشوارع الرئيسية المؤدية إلى الهيكل، والمنحدر أصلاً من مرتفع جبل الزيتون وهو بجوار بيت قيافا. وكانت الضجة في البداية كصوت همهمة ريح عاتية كريح الشتاء أخذت تتجاوب أصداءها السماء إلى وقت غير قليل وبريق نار غير واضح، وفي الحال بدأت تتعالى أصوات الناس حتى سدوا الزقاق بأكمله، والشارع أيضاً المؤدي إليه، حتى بات عسيراً على أحد أن يتحرك من مكانه.

وانتشر خبر أن جماعة المسيح المدعوين بـ« أهل الطريق » بينما كانوا يصلون معاً ، وإذ بالسماء انفتحت ، وشعلات مضيئة نازلة من السماء بشبه ألسنة متوهجة بنار لطيفة هبطت عليهم و وقفت فوق رأس كل واحد منهم ، كأنها أنصبة تتوزع بالتساوي . فبدأوا في الحال يتكلمون جميعاً كالأنبياء ، وإنما بلغات متعددة ، حتى أن كل اليهود المتغربين سمعوا لغاتهم وفهموها : كِلْدان وفُرس وأرمن و يونان ولاتين وعرب ، حتى أن كل واحد من السامعين كان يسمع لغته التي وُلد فيها ، مع أنه يقال أن التلاميذ رجال أُمِّيون من أهل الجليل ، صيادو سمك بسطاء للغاية ، لم يدخلوا مدرسة . وقد وقفوا يعظون الشعب بالأمور الخاصة بيسوع بمنطق وفصاحة الحكماء ، مؤكدين ببراهين كثيرة أنه هو المسيا ، وكلامهم مؤثّر ومقنع ومبهج للقلب أكثر من كل الكتبة والفريسيين !

ولكن الذي أدهش جميع اليهود وأصاب هوى مكبوتاً في قلوب الجميع ، شجاعة هؤلاء التلاميذ الأتقياء وسلطانهم الناري الذي يتكلمون به بقوة و بلا خوف ولا حذر ، لأنهم كانوا يدينون علناً تصرف رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين الذين صلبوا يسوع ، الذين أضلوا الشعب ببراهين كاذبة من الناموس لفَّقوها مع شهود زور كذبة ، حتى استطاعوا أن يميلوا رأي شيوخ الشعب ليشتركوا معهم في خطيتهم ، وهكذا سفكوا دماً بريئاً في العيد !!

وكان تلاميذ يسوع الأتقياء يبكِّتون كل الشعب الذي تحمل بالضرورة مع رؤسائه هذه الخطية المريعة لأن الذي قتلوه تبرهن أنه هو المسيا الآتي الذي قام بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات ، وإن كان قد صُلب ، فبمشورة الله المحتومة وعلمه السابق ليحمل خطايا الشعب . وأما خطية الذين أسلموه لبيلاطس فعظيمة جداً ، لأن بيلاطس لم يجد علة واحدة فيه للموت ، وأشار من جهة ضميره أنه يستحسن إطلاقه ، ولكن رؤساء الكهنة خافوا جداً من سلطان يسوع ، فحسدوه وهيجوا الشعب ولقَّنوه ليصرخ معهم طالبين أن يكون دمه وتكون لعنة صلبه يوم العيد عليهم وعلى أولادهم ، مفضلين أن يُطلَق لهم رجل قاتل و يُقتل رئيسُ الحياة .

وهكذا أدرك الشعب كله شناعة الخطيئة التي أوقعهم فيها رؤساؤهم فكان وَقْعُ الكلام على ضمير الشعب كالسياط، فأخذوا يبكون ساخطين على رؤسائهم الذين أضلوا الأمة كلها وورطوها في هذه الخطيئة ليبقوا هم في مناصبهم!

وطار الخبر إلى الهيكل. وكان جميع فرق الكهنة مع رؤساء الكهنة قد بدأوا الصلاة بملابسهم الرسمية، لأنها الساعة الثالثة (بتوقيت اليهود). فعندما سمع المسئولون الخبر حدث ارتباك في الهيكل كله، وتوقف اللاويون عن الإنشاد، مما أثار انتباه الشعب الذي بدأ يزحم بعضه البعض متدافعين في الأروقة نحو القدس ليسألوا الكهنة واللاويين عن الخبر، لأنه لم يحدث قط أن حدث مثل هذا الإرتباك في نظام خدمة العيد عند اليهود. وعبثاً حاول الكهنة أن يستعيدوا الهدوء والنظام لأن الشعب كان قد بلغه الخبر، وزاد من هياج الشعب رؤيتهم لرؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين يتهامسون واجمين، وهم يسرعون بإصدار أوامرهم بإرسال فرقة من حرس الهيكل مع رئيسين للكتبة: الحاخام «زكّاي» والحاخام «عاكور» («حاخام» هو النطق العبري لكلمة «حكيم»، والحكيم هو الكاتب المتعلّم)، وذلك ليستقصوا عن حوادث زقاق المسيحيين.

وكثير من الشعب بدأ يرفع صوته بالإحتجاج، لأن قسماً كبيراً منه كان موالياً للمسيحيين وغير راضٍ عما حدث في العيد، وبعض منهم كان مسيحياً بالفعل وكانوا على أشد اللهفة لسماع خبر جديد يفيد مجيء الموعد القدوس، وقوة الأعالي التي وعد بها يسوع قبل صعوده. هؤلاء لم يستطيعوا أن يخفوا فرحهم وتهليلهم عندما بلغهم خبر حلول الروح وألسنة النار والتكلم بلغات، لأن قوة عجيبة سرت في قلوبهم وأطلقت ألسنتهم بالتسبيح والشهادة ليسوع أنه هو المسيا الآتي. وبدأوا يغادرون الهيكل صوب زقاق المسيحيين، وبدأ الشعب يتراكض خلفهم وهم لا يعلمون أين يذهبون.

وكان المنظر مهيباً في زقاق المسيحيين، بطرس واقف وحول رأسه هالة من نور يغذيها لهب سماوي أزرق ينحدر من أعلى وكأنه لسان نار أو نجم مذيّل نازل من السماء،

ليستقر فوق رأسه، وحوله جماعة التلاميذ، وكلهم يحملون فوق رؤوسهم هذا النور وهذا اللسان الناري: منظر أخّاذ جعل كل الشعب يضج بالهتاف و يعطون المجد لله و يبكين من شدة التأثر...

هكذا ظهر المنظر لكل من الحاخام زكاي والحاخام عاكور ومعهم حرس الهيكل، إذ وقفوا من بعيد مصعوقين لأنهم عبثاً حاولوا بواسطة الحرس الذي لم يكف عن الصراخ: سيدنا سيدنا، و بالنفخ في الأبواق لكي يشقوا طريقهم للوصول إلى البيت ولكن الشعب فوق أنه كان يتزاحم ككتل من اللحم، إلا أنه قد سد آذانه و بازدراء أيضاً عن الإستماع لنداء الحرس، لأن السخط على الكتبة والفريسيين كان ممزوجاً ببكاء الشعب على الخطية التي ورطوهم فيها.

كان الروح القدس المنسكب على التلاميذ لا يحتاج إلى فحص ولا برهان. فالنور يحيط برؤوسهم، والكلام خارج كالسهام ينفذ إلى أعماق الضمير بلا عائق. وقف الحاخام زاكاي والحاخام عاكور على مرتفع قريب يسمعان وَعْظَ بطرس، فكان زاكاي في تأثر واضح يحني رأسه من الحين للحين، أما عاكور فكان الغضب يتفجر من فمه والشرر يتطاير من عينيه، وكان يكرر كثيراً أنهم سكارى باستهزاء — والتقط هذه اللفظة بعض الصبية وأخذوا يكررونها في كل مكان — ولكن الخوف والفزع أخرسه عن الكلام ولم يستطع التدخل في الحديث، لأن بطرس كان يتكلم بسلطان، واتهامه كان علنياً.

وأخيراً، لم يستطع الحاخامان الإستمرار في الوقوف لأن عيون الشعب بدأت تشخص نحوهما باستهزاء وغضب وتحرش، فانتهز الحاخامان فرصة قدوم عسكر الرومان واختفيا في الحال...

أما عسكر الرومان فقد أُرسلوا على عجل من قلعة أنطونيا من أقصى الشمال لأن تجمهر الشعب في زقاق المسيحيين كان بالدرجة التي استرعت مراقبي البرج من على بعد،

وهكذا في لحظة تلفَّت الشعب فلم يجد حاخاماته ، لا زاكاي ولا عاكور ولا تلاميذهم ولا حراسهم ، وكان اختفاؤهم بهذه الطريقة المخزية الإنهزامية بمثابة إشارة من السماء أن يستجيب الشعب لصوت الله على فم بطرس و يصرخ بفم واحد: «ماذا نصنع أيها الإخوة لنُكفِّر عن ذنبنا وذنب رؤسائنا؟»

وكان بكاء الشعب بشبه عويل ، كعويل النساء على ميت ، من فرط التأثر بالروح والإحساس بالذنب. وكان يُسمع من بعيد بشبه دوي ، لأن ثقل الروح كان شديداً ، ولأن نخس القلب بالروح القدس للتوبة أشد إيلاماً على الضمير من كل ألم أو خسارة يمكن أن تصيب الإنسان في هذا الدهر، وهو كفيل أن يَفقِد الإنسان كل إحساسه بالكرامة والرزانة و بروتوكول العالم الكاذب. وكان صوت الشعب وهو يبكي يُسمَع بوضوح في بيت فيافا الذي لا يبعد عن زقاق المسيحيين كثيراً...

وكان المنظر مذهلا للعقل ، فإن أكثر من ثلاثة آلاف نفس تتزاحم في الزقاق ، تتوب عن كل ذنوبها علناً ، ونبكي على خطيئة صلب المسيح التي لصقت بهم و برؤسائهم ، وكان كل واحد يبكي بمفرده ، وكأنه يبكي على وحيد له ، ولم يكن في كلام بطرس شيء من وعظ الكتبة والفريسيين ، بل كان كلامه يخلو من كل التحذيرات الناموسية والعقابات والمخاوف الموسوية التي كان الكتبة والفريسيون يحفظونها عن ظهر قلب ، والتي كانوا يصبونها على رؤوس السامعين حتى فقد الشعب كل إحساس بالخوف.

كان بطرس يتكلم بلغات على قدر حاجة الواقفين ، وكان الكلام يُفهم بلا مترجم: أن المسيا الموعود به أتى ، وقد حمل خطايا كل الشعب على الصليب ، لكي كل من يؤمن به و يعتمد له لا تُحسب له خطية ، وأنه قام من بين الأموات في اليوم الثالث كما تحقق لنا من أقوال الأنبياء في الأسفار قديماً ، واهباً الحياة الأبدية ، لكل من يشترك في عار الصليب ، وأنه صعد إلى السماء أمام عيوننا بعد أن وعَدَنا بإرسال الروح القدس الذي انتظرناه صائمين ومُصلِّين عشرة أيام ، فانسكب اليوم كما ترون الآن أمام عيونكم بكل قوة

كموعد الآب القدوس، حتى أن كلَّ مَنْ يؤمن بالمسيح يقبله و ينال قوة من الأعالي للشهادة بالحق، لأن الروح القدس هو روح الحق للشهادة ولنوال عطية الله: وهذا الموعد القدوس ليس هو لنا نحن فقط كما كان يأخذه الأنبياء قديماً من دون الشعب، بل العطية لكم، كما هي لنا، ولأولادكم ولكل الذين على بُعدٍ ــ خارج إسرائيل ــ من كل الشعوب وإلى ما وراء الأجيال القادمة، فتوبوا اليوم كل واحد عن خطاياه واعتمدوا الآن باسم يسوع لتقبلوا هذه العطية من عند الله حتى تأتي علينا أوقات الفرج الموعود بها من وجه الرب عوض اللعنة التي عشناها في خطية رؤسائنا.

كان الكلام مؤثرا للغاية، ولكن مبهجاً ومحركاً للروح، حتى أن الناس اختلط عليهم البكاء والفرح. فكان جند الرومان الذين أحاط عسكرهم بكل الجماعة، بخوذاتهم النحاسية وجفانهم وترفُّعهم، مندهشين مما يحدث أمام عيونهم، شيء لم يروا مثله قبلاً، فأمامهم علامات ثورة عارمة ومحرِّضون علنيون، دون أن يكون هناك هتاف أو صراخ أو تهديد بشيء...

أمسك أحد الضباط بذراع شاب يهودي كان متأثراً جداً ومنفعلاً وهو يبكي، وجذبه بشدة، واشتمَّ رائحة فمه ظاناً أنه مخمور فلم يجد شيئاً من هذا، بل دموعاً وأنيناً مع صحو العقل، فصرخ في وجهه بشدة:

ــ ماذا دهاك أيها الإسرائيلي؟

فأشار الشاب بأصبعه إلى قلبه وقال له بلهجة لاتينية صحيحة: قلبي قلبي...

ــ وماذا في قلبك؟

فرد عليه الشاب: يسوع الذي صلبتموه في الفصح...

فزغده الضابط في ظهره وأطلقه وهو يقول: شعب مجنون لم نرَ مثله قط!!...

ولكن رئيسهم، وهو أمير الكتيبة كلها، الذي أتى بنفسه عندما سمع الأخبار العجيبة، وكان رومانياً مهذباً، اقترب من بطرس وأخذ يصغي إليه بكل مشاعره

متعجباً: كيف أن هذا الأمّي يتكلم اللاتينية بهذه الطلاقة؟... فأخبره شاب كان واقفاً بجوار بطرس اسمه يوحنا مرقس وقال لرئيس الجند:

ـــ إن بطرس هذا صياد سمك أُمّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يعرف سابقاً حرفاً واحداً لاتينياً، ولكن الله أعطاه اليوم أن ينطق بلسانكم شاهداً ليسوع المسيح الذي صلبه اليهود في الفصح أنه هو المرسَل من الله ليعطي الخلاص و ينير أعين الذين في الظلام ليرجعوا عن خطاياهم و يؤمنوا بالله الحي.

فاشتدت حيرة الأمير الروماني وظهر عليه أنه يطلب التوبة والخلاص، لأن هذا الأمير كان متابعاً لكل حوادث اليهود وخاصة حوادث الفصح الأخير، وسمع كثيراً عن يسوع فانتحى بمرقس جانباً وقال له: أريد أيها الشاب أن تحضر لي إلى القلعة اليوم لأمر هام، وأكَّد عليه كثيراً أن يطلبه شخصياً. ففهم مرقس كل شيء...

□□□

أما في الهيكل، فقد عاد الحاخامان على عجل، وأخبرا الرؤساء بكل ما رأيا وسمعا. فأمر رئيس الكهنة أن تُعقد جلسة سريعة لكل أعضاء السنهدريم مع كبار الكتبة والفريسيين، بعيداً عن الشعب في منزل قيافا المجاور للهيكل.

وأثَّر غياب رؤساء الكهنة من الهيكل في خدمة الصلاة داخل الهيكل بصورة ملحوظة مما زاد من التساؤلات: حتى شاع خبر زفاف المسيحيين وقيامة يسوع من بين الأموات وظهوره علانية وحلول الروح القدس على التلاميذ وتكلُّمهم بألسنة جديدة.

و بدأ ينتشر الخبر بين جميع اليهود الذين حضروا العيد من جميع أنحاء العالم، وهذا بدوره جعل زفاف المسيحيين يغص بالشعب طول النهار والليل الذين بدأوا يُقبلون على التوبة والعماد علناً، مما زاد من ضجر رؤساء الكهنة، فاتصلوا سراً بأمير الكتيبة و وعدوه بأموال كثيرة لكي يقبض على رؤساء حركة زفاق المسيحيين و يلقيهم في السجن إلى أن

تَقدّم في حقهم التهم الكافية لإعدامهم... ولكن الأمير اسهزأ بالرسول اليهودي ورد عليه أن ضميرنا الروماني لا يسمح لنا أن نعاقب قوماً أبرياء!...

وفي الحال أرسل مكتوباً مختوماً إلى رئيس المائة الذي أُنيط به حفظ النظام في زقاق المسيحيين مكتوباً فيه هكذا: إحرص على أن تباشر واجبك العسكري بحسب الشرف الروماني في حدود حفظ النظام فقط، ولا تمد يدك بسوء لأحد قط من زقاق المسيحيين وانتبه من مكايد اليهود، واحذر من ذهبهم...

فزاد العسكر الرومان من بشاشتهم ولُطفهم نحو أهل الزقاق وكل الوافدين إليه بصورة سرية غير عادية قط، حتى تعجب كل المسيحيين وصاروا فرحين للغاية وصاروا ينشدون أناشيد روحية عجيبة يمدحون فيها يسوع و يرنمون بالمزامير التي فيها ذكر لإحسانات الرب. وكانت قوة غير عادية تسيطر على زقاق المسيحيين لدرجة أن بعض عسكر الرومان قبلوا الإيمان، واعتمدوا، وظلوا بملابسهم الرسمية.



— ٣ —

من الظلمة إلى نوره العجيب

خيَّم الوجوم على اجتماع السنهدريم منذ أول لحظة.

جلس «فيافا» في صدر المجلس على كرسي عالٍ، وبجواره حموه «حنان» رئيس الكهنة السابق، هذان اللذان اشتركا معاً في خطية قتل البار، بالرشوة و بتلفيق التهم وشهود الزور. رئيسان يتبادلان كل صنوف الخبث والرياء والقسوة الخفية مع اللطف واللين الظاهري المصطنع. كان المال والمنصب هما كل شيء، أما الناموس والشريعة والتقوى وتقليد الآباء فيمكن التغاضي عنها كلية أو التمسك بها جداً، إذا لزم الأمر!...

وما صورة الربح القبيح، والتسلط على الرعية عن قهر واضطرار، التي كانت تقض مضجع بطرس الرسول، إلا صورة فيافا التي انطبعت على ذهن التلاميذ... ثم جلس في مقابل رئيسي الكهنة، الحاخام زاكاي وزميله عاكورمندو با رئيس الكهنة لاستقصاء حوادث زفاق المسيحيين.

وامتلأت القاعة بأكثر من العدد الرسمي للإجتماع، إذ شدد قيافا على رؤساء الكتبة والفريسيين بالحضور لخطورة الموقف، إذ كان منزعجاً جداً لا من جهة أخبار قيامة يسوع فحسب بل و بالخبر الجديد بحلول الروح القدس، إذ اعتبر ذلك بمثابة تصديق للقيامة، وهذا جعله يحس بأن أصابع الإتهام بدأت تشير عليه بشدة كقاتل وسافك دم زكي، فدخلته رعبة حجزته عن الكلام. من أجل ذلك أوعز إلى حميه «حنان» العجوز المتعتق في الشر أن يتكلم عوضاً عنه.

بدأ حنان يتكلم عن ضرورة وضع حد لنشاط هؤلاء المسيحيين — أهل الطريق — (جماعة أهل الزقاق): «لأنكم ترون اليوم كيف اجتذبوا أكثر من نصف العابدين في

الهيكل، وشوشروا على عبادتنا المستقيمة، وأربكوا الصلاة وأتلفوا بهجة العيد. وهذه الأمور إن تهاونتم فيها فهي وشيكة أن تقضي على كل عبادتنا العظيمة وتصبح خدمات الهيكل كلا شيء.

وأنبه ذهنكم أن انفضاض الشعب عن العبادة داخل الهيكل بهذه الصورة عتيد بأن يؤثر على مركز أمتنا كلها ويحرج موقفها السياسي، لأنكم تعلمون أننا نأخذ حقوقنا من الرومان من واقع تكتلنا وعظمة هيكلنا وسلطان رئاستنا الذي يقوم على خضوع الشعب خضوعاً تاماً.

كذلك يلزم أن تدركوا أن حصيلة هذا العيد من الأموال التي جُمعت من جميع الخزائن الثلاث عشرة لم يبلغ رُبع الحصيلة الإعتيادية التي لكل سنة، فانظروا من أين ستصرفون... إن إبادة هذا الزقاق المشئوم بكل من فيه هو رجاؤنا الوحيد لإستعادة حقوقنا وحياتنا».

وأعطى حنان الكلمة للحاخام عاكور ليدلي بشهادته، بحسب المعاينة التي تمت في الصباح لزقاق المسيحيين، فبدأ الحاخام عاكور متحمساً ملتهباً — إنما بصورة مصطنعة لأن الرعبة كانت بادية على وجهه — فوصف جماعة الزقاق بأنهم جماعة سحرة ورثوا عن معلمهم الساحر الملعون (كذا) كل صنوف المهارة في التأثير على الشعب. وعزا كل ما رآه من تكلم بألسنة ملتوية غريبة بأنها قوة شيطانية نحرمها ونقطعها ونلعنها، وأن كل المعجزات التي حدثت إنما هي حيل شيطانية لإزاغة الشعب عن عبادة الهيكل العظيم.

وهنا توقف عاكور فجأة، وكمد وجهه، وتقلصت عضلاته، وبدأ يتلوى بسبب ألم مريع أصاب ساقه اليمنى، فأسرع زملاؤه مع خدم رئيس الكهنة ليستفسروا عن الذي حدث، فاعترف أن ضربة أصابت ساقه اليمنى كأنه رفس منخاساً محمّى بالنار، وبدأ يئن... فدخلت الرعبة كل أعضاء المجلس إذ أحسوا أن الأمر ليس طبيعياً.

وهنا تدخل حنان بسرعة ليهوّن الأمر على عاكور وعلى المجلس مخاطباً الحاخام المجدّف: تكلم أيها الحاخام المكرم عاكور، استكمل حديثك، إنه ألم عابر...

فعاد عاكور، و بالجهد تمالك نفسه و بدأ يتكلم بصوت خفيض مرتعش يقول:
ــ إن هؤلاء الجماعة وجدتهم سكارى والخمر تلهب حماسهم وتلوي لسانهم لينطقوا كيفما شاءوا، فكلماتهم غير مفهومة على الإطلاق، ولا تحسب أنها أي لغة كما يدعون، فهي لغة المشعوذين الذين يخاطبون الأرواح التي يقول عنها داود الملك في المزمور: «ليس في أفواههم صدق، باطل هو قلبهم، وحلقهم قبر مفتوح وقد غشوا بلسانهم» (مز٥: ٩و١٠). والله عتيد أن يستأصلهم و يسقطهم من مؤامرتهم ونفاقهم. أما الشعب الذي يتبعهم فهو شعب مسكين ضل من عدم المعرفة وزاغ عن أصول الناموس وقوانين الشريعة. أما تأثر الشعب و بكاؤه فهو من الخوف والذعر الذي أوقعوه فيه بسبب تركيزهم وتهو يلهم على الخطيئة...

وأنا أعتقد أنها تجارة جديدة للدين للفت الأنظار وكسب الأموال والشهرة غير المشروعة. ولا أعتقد أننا قادرون على وقف هذا التيار المفسد إلا بأشد أنواع العقوبة والمقاومة والإضطهاد بلا رحمة، حتى ولو أدى ذلك إلى الإيقاع بهم لدى حكومة قيصر نفسه لإبادتهم من على وجه الأرض، ألم يقل الملك داود في المزمور: «كنت أجول في المدينة أقتل جميع خطاة الأرض.» (مز١٠١: ٨)

وهنا لمعت عينا حنان وهزّ رأسه باستحسان: جيد أيها الحاخام المكرم عاكور قد أصبت الحقيقة.

وكان كاتب الجلسة يسجل كل ما يقال... ولما انتهى أشار حنان إلى الحاخام زاكاي ليدلي بشهادته.

كان زاكاي ضمن الرؤساء الذين حضروا محاكمة يسوع، وشاهد بنفسه الغش

وتلفيق التهم ودفع المال بسخاء لجمع شهود زور، مخالفين الشريعة والشرف والضمير والرجولة والإنسانية. لقد كان الحاخام زاكاي أحد أرباب المشورة داخل غرفة رئيس الكهنة الخاصة، وشاهد بنفسه مدى تعري رئيس الكهنة من كل مبادىء الصدق والأمانة والشرف ومخافة الله واحترام الناموس، كما رأى كل وسائل الضغط والسرعة واستخدام السلطان الديني للبلوغ إلى غاية واحدة وضعها رئيس الكهنة أمام عينيه وهي التخلص من يسوع باندفاع وسرعة محمومة، لا لشيء إلا خوفاً على مركزه وسلطانه وسيرته وأعماله التي بدأت تنكشف أمام الشعب بسبب تعاليم «يسوع»، و بسبب النور الكشاف الذي كان ينبعث من شخصية الرب ليفضح كل ما يُقترف باسم الله في الظلام!!

ورأى أيضاً زاكاي بعينيه كيف كانت تنهاوى شخصيات كبار الكتبة والفريسيين العظام والناموسيين والمعلمين المشهورين تحت رجلي صاحب السلطان، خوفاً على مركز أو حفاظاً على معاش أو تستّراً على غنائم أو لمجرد المجاملة وأدب المعاملة واحترام الرؤساء، وختموا جميعاً ومضوا وأقسموا على قتل البار، و بِذُلّةٍ وحماس معا وخِسّة وشجاعة مفتعلة خرجوا في موكب الظافرين حاملين عريضة الإتهام لصلب المسيح.

أما زاكاي فقد أقسم في قلبه أن لا يمد يده ولا يسير بقدمه في طريق سفك دم هذا البار، حاول المستحيل ونجح، ولكن كان يلاحظه رئيس الكهنة عن كثب متعجباً من سلوك هذا الكاتب؟!

تركت حوادث الفصح ومنظر المحاكمة والصلب في فكر زاكاي سحابة سوداء ثقيلة، وكان الشك يؤذي نفسه جداً: مَنْ يكون هذا الإنسان البريء؟ وكيف احتمل هذا الظلم والألم المريع دون أن يشكو أو يدافع؟!

ولكن بعد وصول زاكاي إلى زقاق المسيحيين موفَداً من رئيس الكهنة، وسماعه بأذنيه من فم بطرس خبر قيامة «يسوع» من الأموات ببراهين وشهود عيان، أحس بقوة

هـائلة تدخله وتسري في أعماقه وتنير ذهنه ، فأدرك بيقين الإيمان أن يسوع انتصر فعلاً على مخططات رئيس الكهنة وداس على فضاء الموت ، وأنه هو المسيا حتماً ، وهو صاحب هذه القوة الفائقة التي كانت تشدد التلاميذ وتعطيهم هذه الشجاعة النادرة للشهادة...

لم يستطع زاكاي أن يأكل أو يشرب منذ الصباح ، منذ الساعة الثالثة ، منذ أن أحس بقوة الروح تسري في جسده في زقاق المسيحيين . وكان زاكاي سابقاً مريضاً يقذف الدم من فمه بقَيء أسود ، وعولج كثيراً عند الأطباء وصار حاله إلى أردأ ، ولكن منذ أن وطأت قدماه زقاق المسيحيين كفّ الألم من أحشائه في الحال ، والآن وقد حل المساء فهو لا يزال يشعر بهذه القوة تسرى فى جسده كله ، وفي ذهنه باستنارة عجيبة . لقد انكشفت أمامه كل الأسفار وأدرك سر يسوع في جميع الكتب... لقد تيقن أن يسوع هو المسيا ، وأنه قائم الآن وحيّ .

بدأ زاكاي كلامه في مجلس السنهدريم هكذا :

ــ « تعلمون أني عشت بينكم كل أيامي بضمير نقي ، ولم أتكلم قط في حق إنسان ، ولم أشهد في حياتي كلها شهادة زور ، لأني تعلمت عن معلمي هاليل الكبير أن الله يرانا و يسمعنا ، متكلمين كنا أم صامتين ، لذلك أتكلم الآن أمامكم كما من الله أمام الله ، وسأبوح لكم جهاراً بسر ضميري ، والله شاهد على كل ما أقول . فإني حتى اليوم أتعذب ليلاً ونهارا بضيق لا يوصف بسبب حوادث يوم الفصح »...

هنا قاطعه رئيس الكهنة حنان بتحدي : « وما هي حوادث الفصح ؟ »

ــ فأجاب زاكاي : « صلب يسوع ! »

وهنا دخلت الرعدة قلب حنان أيضاً و بدأ يصرخ بارتعاش صوت : « وماذا كان في صلب يسوع ؟ »

هنا ابتدأ زاكاي يأخذ شجاعة غير معتادة ورفع صوته الجهوري :

ـــ «لقد كانت كل الإجراءات التي اتُّخذت في ذلك اليوم منافية للناموس وللحق ولضمير أيضاً»...

ـــ إخرس... أصمت... أسكتوه... ضعوا رصاصا في فمه!!

وصار صخب شديد داخل المجلس وقام الكل يريدون الإعتداء عليه، وهنا انبرى غمالائيل وهو معلم متزن شيخ يحترمه رؤساء الكهنة، وكان هو الآخر غير راضٍ عن حوادث الفصح من الوجهة القانونية...

وقال غمالائيل:
ـــ أطلب من المجلس الموقر أن يعطي فرصة للشاهد ليدلي بشهادته حتى آخرها، ولنا الحكم، فلماذا الإنزعاج؟... واستطرد: أستأذن سيدي رئيس الكهنة، تكلم يا حاخام زاكاي.

بدأ زاكاي مرة أخرى بشجاعة وإصرار لا يلين:
ـــ لا أريد أن أتدخل في تفاصيل الماضي. فكل واحد يعرف ما اقترفت يداه، وأعضاء المجلس جميعاً على علم بكل الإجراءات التي اتخذت على عجل، وإن أكثر من نصف المجلس أمضى على وثيقة الإتهام وهو غير مقتنع، والكل كان يطلب تأجيل الحكم لضيق الوقت وعدم لياقة المناسبة. وكنا قد اتفقنا في جلسة سابقة على الفصح أن لا يتم شيء في العيد لأن هذا اعتبرناه منافياً لكل تقاليدنا ولأحكام الناموس، لأن تعليق إنسان بار على خشبة يوم الفصح كفيل بحد ذاته أن يبطل الفصح...

صراخ في وجه زاكاي، ولكن غمالائيل يتدخل مرة أخرى ويهدىء المجلس وهو منفعل ومنذهل من شجاعة زاكاي و بدا أن لديه رغبة ملحة أن يسمع زاكاي حتى النهاية...

ـــ أستأذن سيدي رئيس الكهنة في أن يتكلم الحاخام زاكاي: تكلم يا حاخام

زاكاي!...

عاد زاكاي يقول:
ـ ولكن رُئي في آخر لحظة أن يؤخَذ الموضوع بأقصى سرعة مع أنه لم يكن هناك شيء على الإطلاق يدعو للسرعة. ولكن السرعة استلزمت سد ثغرات مفتوحة لا يمكن استيفاؤها إلا بطرق غير مشروعة مسَّت الشريعة في الصميم ـ زمجرة من رئيس الكهنة ـ وهذه الأخطاء المتعمدة ضد الشريعة والناموس صارت كفيلة هي أيضاً بإبطال شرعية مسئولية مجلسنا عن العبادة برمتها...

... صراخ وتلويح بالأيدي وتهديد... ولكمة تصيب أنف زاكاي فينزف الدم حتى يغطي وجهه وملابسه.

ومرة أخرى يقوم غمالائيل ويحجز عن الشاهد، و ينشف له الدم بمنديله، و يطالب المجلس بصوت حاد وغضب: «أيها الرجال الإخوة ينبغي أن يُحترم القانون اليهودي داخل السنهدريم، وإلا أين يحترم قانون اليهود؟... أستأذن سيدي رئيس الكهنة، تكلم يا حاخام زاكاي»...

ـ لقد طُلب مني بالفعل تقديم شهادة زور على يسوع، لأني كنت من الذين اعتاد سيدي رئيس الكهنة إيفادهم لمحاورة يسوع، ولكني رفضت بشدة معرِّضاً نفسي للغضب لا لأني من أتباع يسوع، ولكن لأني كنت أعلم علم اليقين أن شهادتي بالزور هي بحد ذاتها حكم بالموت عليَّ أنا ـ بحسب الناموس ـ وليس على يسوع!! ولكن للأسف تبرع غيري وتولى الإدلاء بشهادة الزور بلا خوف من الله...

وهنا أحس غمالائيل بالحرج الشديد لأن الكلام كان منصباً على رئيس الكهنة بشدة وعلى بعض من أعضاء مجلس السنهدريم الحاضرين فتدخل بسرعة:
ـ يا حاخام زاكاي، أنت مُطالَب الآن بإعطاء شهادة عما رأيت اليوم في زقاق المسيحيين، ولست مطالباً بالشهادة عن يوم الفصح. فأوجز في الكلام وأخبرنا بما رأيت

وسمعت اليوم في الزقاق...

ـــ سيدي رئيس الكهنة، أيها الرجال الإخوة حكماء ومعلمي إسرائيل، إن ما حدث اليوم في زقاق المسيحيين هو النتيجة الحتمية المباشرة لِما حدث يوم الفصح، فإن كان مجمعنا استطاع بالسلطان الأعظم الذي لرؤساء الكهنة ومعاونة أعضاء السنهدريم و بقوة حرس جند الهيكل واستخدام شهادات الزور أن يقبض على إنسان ويحكم عليه بالموت صلباً وهو بريء أمام الله، ثم إن كنا قد نجحنا أيضاً في سد أفواه تلاميذه وهم أناس أتقياء من أن يشهدوا بما رأوا وسمعوا، فاليوم ليس أقل من أن يقيم الله هذا البار الذي صلبناه ظلماً وحسداً و يقيمه علانية ليراه كل الذين آمنوا به، ثم ليس أقل أيضاً من أن يفتح الله السماء و يسكب من روحه على هؤلاء التلاميذ الرجال الأتقياء و يشهد الله بروحه فيهم عن كل ما رأوه وسمعوه!... لأن كلمة الله لا تُقيَّد ولا يستطيع أحد أن يمنع الشهادة لله!...

واليوم أُقسم أمامكم بكل ما هو كريم في ناموسنا، أنني رأيت روح الله حالاً على التلاميذ وعلى بطرس بأعظم من كل ما سمعنا عن حلول الروح على الأنبياء قديماً، ورأيتهم وسمعتهم يتكلمون بكل لغات الأرض، التي أعرف منها ثلاث لغات غير لغتي العبرانية التي وُلدتُ فيها، وكانوا يشهدون بقوة عظيمة لا يمكن أن تقاوَم أو تعانَد أن يسوع هو المسيا الآتي، وأنه صُلب بحسب مشورة الله المحتومة وعلمه السابق لكي يحمل خطايا هذه الأُمة، ثم قام من بين الأموات في اليوم الثالث حسب ما أشار إليه بعض الأنبياء والمزامير لينير طريق الحياة والخلود أمام كل شعوب الأرض.

وأشهد لكم أمام الله أني حتى صباح اليوم كنت أنا نفسي في شك مريع من كل ما حدث يوم الفصح لأني كنت متابعاً إجراءات الصلب عن قرب، ورأيت وسمعت بعيني هدوءه و وداعته وصبره وعدم دفاعه عن نفسه قط، فكنت مرتعباً من سكوته أمام الوالي وهو يلحُّ عليه أن يقول كلمة دفاع واحدة فلم يقبل قط!! وخاصة عندما سمعته يقول إنه لهذه الساعة (أي ساعة الصلب) قد أتى إلى العالم!!

لقد أمضيتُ بعد ذلك ليالي برمتها ساهراً باكياً حتى الصباح مفتشاً في جميع الكتب والأنبياء والمزامير، ولقد استرعاني إشعياء وأرعبني، فهل كان يتكلم هذا النبي عن يسوع؟ هل يسوع هو المسيا حقاً؟...

وكاد الشك يقتلني، إذ كنت أسأل هل يرضى الله أن يُصلب المسيا؟ وبهذا العار وهذه الفضيحة؟ وهو المعروف في أسرارنا نحن الربيين أنه ابنه وحبيبه؟...

ولكن اليوم أيها الرجال الإخوة وأنا واقف في زقاق المسيحيين وحينما دخل صوت بطرس في أذني، تبدد الشك من قلبي إلى الأبد، لقد سمعت بطرس يشهد بالرومية التي أتقنها «أن هذا هو رئيس الحياة»، فتبدد الظلام من قلبي وغشيني نور الله العجيب.

هذا ما أشهد به لكم اليوم بإيمان أن يسوع هو المسيا!...

□□□

وهنا حدثت ضجة مرعبة، وانكسر المصباح الذي كان ينير المجلس. وفي الحال أدرك زاكاي بالروح أنه أكمل الشهادة، وصار عليه أن يسرع في الخروج لأنه أدرك أن الموت ينتظره إن هو تعوق لحظة واحدة، وأحس بيد تمسك ذراعه وتجذبه للخارج، وفي اللحظة وجد نفسه خارج بيت قيافا، فأسرع الخطى في الظلام بعيداً...

خرج زاكاي وجسمه يتصبب عرقاً وقطرات دم لا تزال تنزف من أنفه...

— ٤ —

الحاخام في زقاق المسيحيين

اتجه الحاخام زاكاي بملابسه الرسمية ذات الأهداب وعمامته العريضة إلى زقاق المسيحيين، كان الليل قد بدأ ينتصف. وكان بطرس والتلاميذ يعمّدون المؤمنين الجدد منذ الصباح خمسين خمسين في كل مرة، ثم يستريحون مستخدمين كل خزانات مياه الشرب في البيت. والبيت المجاور. وكان كل خزان مقدار قامة رجلين عرضاً وطولاً وقامة رجل ارتفاعاً. وروح الله حالٌ على الجماعة ببهجة ووقار وأصوات تسبيح سمائي تأخذ بالقلوب.

وقف الحاخام زاكاي في ساحة البيت فجأة أمام نور المصباح، فاندهش الجمع الواقف لمنظره، لأنه بالرغم من عظمة مظهره كان في حالة إعياء شديد يُرثى لها، والدم يتساقط من أنفه و يبلل كل صدره حتى لطخ كل ملابسه، ولم يستطع أن يحبسه ولا يحبس دموعه التي كانت تنهمر من فرط التأثر والفرح...

أسرعت الجماعة نحو بطرس الذي جاء من الداخل على عجل. وهو مشمّر عن ذراعيه وملابسه مبتلة كلها بالماء، ورحّب بالحاخام بكل عطف ومحبة واحترام شديد وأدخله داخل البيت والتفّ حوله التلاميذ مرحبين، ولم يسأله بطرس شيئاً، لأنه أدرك بالروح كل القصة، خاصة بعد أن أسَرَّ يوحنا في أذن بطرس أنه الحاخام الكبير زاكاي عضو السنهدريم وأحد قادة اليهود الكبار. لأن يوحنا كان يعرفه شخصياً...

حاول بعض التلاميذ أن يقدموا له معونة بسبب نزيف الدم، ولكن بطرس تصنّع أنه ينشف له الدم المتساقط ولمس أنفه بإبهام يده داعياً باسم يسوع، فجفّ نزيف الدم في الحال. وأحس زاكاي بالمعجزة لأنه شهد أن قوة دخلت كل جسمه وأعطته راحة عظيمة بعد الجهاد العنيف الذي بذله.

وأنشأ زاكاي يقص لهم قصته بتدقيق منذ الإبتداء، منذ أن قابل يسوع في الهيكل لأول مرة في السنة الأولى لخدمة الرب، وكيف تكلم معه طويلاً، وأن كلماته صارت نوراً له في طريق حياته غيَّرت كثيراً من مبادئه وسلوكه، ثم ابتدأ يكشف لهم عن حوادث المحاكمة قبل يوم الفصح، وفي يوم الفصح، وعن كل ما صنعوه بيسوع سراً داخل غرفة المشورة لرئيس الكهنة وداخل السنهدريم وعن كل الإجراءات الباطلة وشهادات الزور.

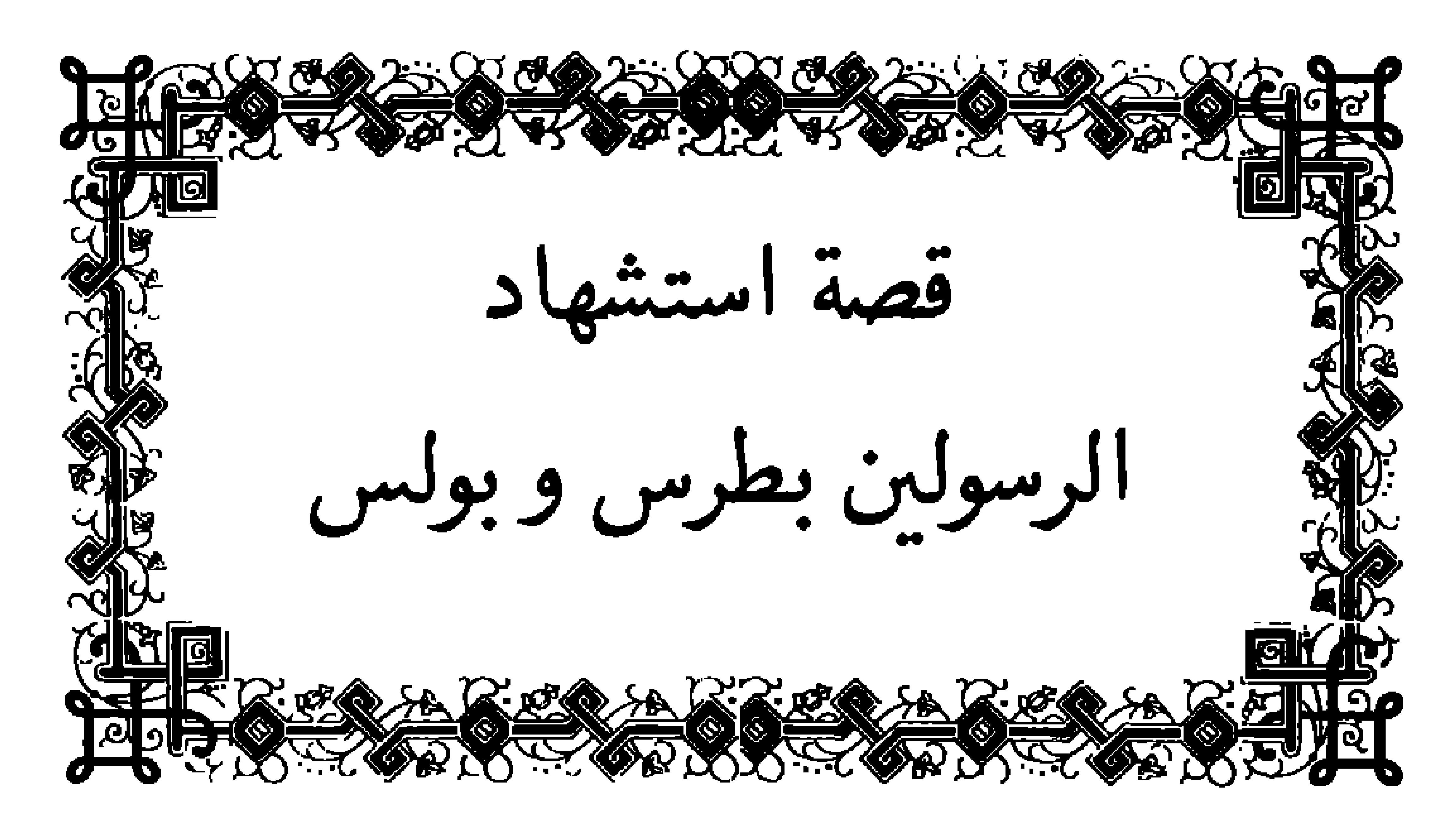
وقد أصغى كل من بطرس و يوحنا بانتباه شديد لما رواه زاكاي، لأن حديث زاكاي كشف لهم كل الحقائق التي كانت مخفية عنهما فيما يخص المحاكمات، وهي التي صارت مكتوبة في الأناجيل...

ثم حدثهم زاكاي عن مجيئه في الصباح لزقاق المسيحيين موفداً من لدن رئيس الكهنة مع عاكور زميله المجدِّف، وكيف أنه لما سمع شهادة بطرس بالروح قَبِلَ الإيمان، ثم قص لهم عن كل ما دار في مجمع السنهدريم في بيت قيافا وكيف أُهين وتألم وشهد أن يسوع هو المسيح...

ـــ «والآن أُريد أن أعتمد لأشهد للمسيح بالروح علناً في كل مكان».

□□□

(٣)





مصباح أثري من أخميم بصعيد مصر
مصوَّر عليه رسم القديسين الرسولين بطرس وبولس

قصة مؤلفة تعتمد في روايتها على:

١ ــ رسائل القديس بولس الرسول، التي كتبها وهو أسير في روما، وتلك التي كتبها بعد الإفراج عنه، وعلى رسائل القديس بطرس الرسول.

٢ ــ كتابات الآباء الأولين.

٣ ــ تحقيقات المؤرخين القدامى، وثنيين ويهوداً المعاصرين للحوادث، والذين كانوا قريبين منها.

٤ ــ المؤرخين المحدثين المتخصصين في تاريخ الأحقاب الأولى من تاريخ الكنيسة.

ــ وقد قام الكاتب بملء الفراغات من عنده.

ــ يرويها الكاتب على لسان القديس لوقا الإنجيلي كاتب سفر الأعمال.

كان ذلك في ربيع سنة ٦٠م(١)، أي بعد ثلاث سنوات كاملات منذ أن كتب القديس بولس رسالته إلى أهل روما (سنة ٥٨م) وهو في كورنثوس، التي أعلن فيها مدى إلحاح الروح فيه للذهاب إلى أسبانيا (حدود الإمبراطورية من الغرب) ماراً بروما، «ينبغي أن أرى روما أيضاً» (٢)، لإرساء قواعد الإيمان الذي كان يتأجج في صدره، في تلك النواحي بين المؤمنين الجدد، و ينير بصيرة الذين سبقوه في الإيمان يوم الخمسين في غمرة انسكاب الروح القدس على الذين كانوا في أورشليم من هذه الأقاليم آنذاك. ولكن إرادة الله شاءت أن يجيء بولس إلى روما أسيراً في قيود ليشهد للمسيح كسفير في سلاسل، حاملاً معه ملء بركات الإنجيل.

---

(١) بعض المؤرخين يقولون سنة ٦١ ميلادية.

(٢) أعمال ١٩: ٢١.

لذلك، منذ أن وطأت أقدامنا روما أدركنا في الحال عظم الإرسالية التي بعثنا الله إليها للخدمة والشهادة بلا مانع حسب قول الرب لبولس في الرؤيا: «وفي الليلة التالية وقف بي الرب وقال ثق يا بولس لأنه كما شهدتَ بما لي في أورشليم، هكذا ينبغي أن تشهدَ لي في رومية أيضاً» (أع٢٣: ١١)، إنما من خلال سلاسل وقيود. غير أن الروح يقول على فم بولس صراحة: «أن كلمة الله لا تقيَّد.» (٢تى٢: ٩)

أما قيادة بولس لجماعتنا الصغيرة من جهة تدبير شئون الخدمة في هذه الظروف الحرجة، فكانت تشهد كل يوم بمقدار النعمة والحكمة التي منحها الله لبولس لإنتشار كلمة الإنجيل بقوة وسلطان لا يعانَد، مما جعل الكلمة كالنار تتأجج في قلوبنا وأفواهنا نحن أيضاً، لتجذب القريبين والبعيدين من كل أنحاء إيطاليا مئات وألوف من اليهود والدخلاء والأمم. (٣)

وما أتفه الزمن عندما نقيس به أعمال الروح، فقد مضت سريعاً هاتان السنتان اللتان قضيناهما في روما مع بولس وهو ما يزال أسيراً حبيساً في منزله الذي استأجره لنفسه تحت حراسة جندية، وكان خارج المعسكر على تلة «كولي» شرق معبد كلوديوس قيصر، حيث كنا ننتظر كل يوم إعلان القضية. ولكن لم نشعر بالزمن من أجل تنوع الأحداث كل يوم، ومن أجل عمل الروح القدس الفائق الوصف، لأن جموعاً كثيرة كانت تتدفق على البيت ليل نهار بفرح لا يوصف من كل نواحي إيطاليا. وكانت الأيام تمر كأنها عيد متصل، وكنا نعجب حينما نرى الرومان الأشراف وهم الأسياد يجلسون

---

(٣) بحسب تحقيقات العلاّمة فيلو والمؤرخ يوسيفوس، بدأت الجالية اليهودية تتكاثر في روما منذ أن هاجر حفدة الأمراء الماسمونيين من أورشليم إليها إثر استيلاء بومبي على أورشليم سنة ٦٣ق‌م، وقد انضم إليهم كل اليهود الذين اقتيدوا إليها كعبيد وأسرى ثم تحرروا هناك وكوَّنوا مجمعاً لليبرتيين، وقد بلغ عددهم في العصر الرسولي حوالي ٣٠،٠٠٠، حتى إن حكومة روما أرادت أن تتخلص من هذا العدد الكبير فسخرت منهم حوالي ٤٠٠٠ يهودي ليعملوا في مناجم جزيرة سردينيا. وكان لهم سبعة مجامع في روما وثلاثة مدافن كبرى، لا يزال محفوراً على كثير منها أسماء المتوفين مكتوبة بالحروف اليونانية وفي جمل يونانية ولاتينية. وكانوا يقطنون الحي الرابع عشر المعروف باسم تراستيفير Trastevere.

باتضاع وسرور مع العبيد وأهل الحِرَف و يرنمون للرب بروح واحد.

وكنا نقوم أنا و بقية الإخوة مع تيموثاوس وأبَفراس ــ الذي من كولوسي ــ قبل أن يُلقوهما في السجن(٤)، بالتعميد في منزل مجاور، وكان ذلك يستغرق منا كل النهار والليل أحياناً، لأننا كنا نقوم بالتعليم للمبتدئين خصوصاً الوثنيين الذين لم يكن لهم دراية قط بالأصول الأولى للعبادة. لذلك لم يتوفر لي وقت لتدوين كل شيء حسب العادة، ولكني كنت أستودعها ذاكرتي إلى أن يتوفر لي فرصة للكتابة.

وكنا نلاحظ أن الفقراء والعبيد(٥) يأتون إلينا بالنهار و يقبلون الإيمان والعماد في الحال بكل حماس و بساطة قلب، أما الأغنياء وموظفو الدولة فكانوا حذرين يأتون في العتمة، لأن المال والجاه والرئاسة تضعف النية وتجعل القلب جباناً إزاء الحق، بطيء الإستجابة لنداء الروح. فكنا نغبط الفقراء والمساكين لأنهم أقرب دائماً إلى ملكوت الله.

وكان المنزل الذي استأجره بولس قريباً من منزل أحد الموظفين المقرَّبين لبيت قيصر، رجلٌ يُدعى «كلوديوس»، وكان يمتُّ إلى زوجة الإمبراطور بصِلَة القرابة، كنا نراه يتقابل كثيراً مع الجندي المنوط بحراسة بولس، و بعد قليل أصبح يتردد علينا بكثير من الحذر وحب الإستطلاع، ولكن شعرنا جميعاً بلطف هذا الإنسان وأدركنا بالروح أنه مدعو ليكون شاهداً معنا لآلام المسيح. فكنا نفسح له مكاناً كبيراً في قلوبنا.

وقد لاحظنا أنه بعد زيارته الأولى لبولس صار في قلق وهمٍّ ثقيل بدا عليه واضحاً من جهة الضمير، مما جعله يكثر التردد على المنزل، وكان في البداية يجلس صامتاً. وفي ذات ليلة طلب الإختلاء ببولس، وظل يتكلم معه حتى مطلع الفجر. ومنذ ذلك اليوم ابتدأ يتكلم معنا جهاراً عن الأمور المختصة بالمسيح بدون أي تحفُّظ. ولما وجد أن النساء يحضرن مع الرجال ليسمعن التعليم بدون تفريق حسب عادة المسيحيين، تشجع ذات يوم وأحضر

(٤) عب١٣: ٢٣؛ فليمون: ٢٣.

(٥) العبيد في روما في ذلك الوقت كانوا من البيض من أقطار شرق أوروبا وشمالها، ومن جزيرة بريطانيا.

زوجته وتدعى «كلافدية»، وفي الحال تيقنّا أن الله افتقد هذا البيت، لأنهم قبلوا العماد في نفس الأسبوع، وهكذا انفتح لنا باب فعّال وسط أهل بيت قيصر.

وحدث أن ترجّاه ذات يوم أحد الإخوة أن يكون حذراً في إعلانه عن إيمانه حتى يحتفظ بوظيفته في بيت قيصر ليكون نافعاً لنا بالأكثر، ولكن لدهشتنا وجدناه قد احتدت روحه فيه شاهداً جهاراً بإيمانه، مستنكراً كيف يخفي خلاصه أو ينكر حياته الأبدية؟ جازماً أنه لم تَعُدْ عنده شيء يخافه أو يحبه، ولا الحياة نفسها، إلا الرب يسوع، الذي من أجله، هو مستعد أن يفقد كل شيء. ولكن الرب شدده وحفظه من كل سوء فظل يخدم معنا جهاراً حتى استمال عدداً كبيراً من موظفي البلاط ومن رؤساء الجنود.

و بعد شهر واحد من قبول كلوديوس الإيمان، جاء إلينا مسرعاً وأَسَرَّ إلينا أن آمرأة قيصر وتُدعى «بو بيا سابنيا» ــ وهي الروجة الثانية بعد «أوكتافيا» ــ كانت قد استمعت إلى قصة قبوله الإيمان وتعميده وتجديده، فطلبت إليه بإلحاح أن ترى بولس وتسمع منه. وقد علمنا أن بو بيا كان يتردد عليها أحد كبار اليهود، وهو ضابط برتبة چنرال له الجنسية الرومانية، مؤرخ يسمى «يوسيفوس»، رجل دمث الأخلاق لا يميل إلى التعصب، هذا كان قد لقّن بو بيا أسرار الدين اليهودي حتى تفتّح قلبها لعبادة الله الحي، وكان يصفها يوسيفوس بالتقوى، والذي كان يدّعي أنه صديق قيصر. والحقيقة أن نيرون ليس له صديق على الإطلاق وكان يمقت اليهود، ولكن لداعي السياسة كان يخفي حقده عليهم و يقابل كبراءهم بمودة مصطنعة.

أما بو بيا فكانت آمرأة منحلة تركت زوجها لتتزوج نيرون، ولكنها كانت لا تكف عن السعي لكي تصلح من ماضيها، وكانت عميقة في تفكيرها، متزنة في حوارها خاصة ما يدور حول العبادات، تحب أن تعرف كل شيء، فكانت تستفسر من يوسيفوس عن تاريخ اليهود وعباداتهم، غير أنها لم تكن تبدي رأياً قاطعاً في شيء، فكانت نصف متهوّدة!

ولكن بمجرد أن سمعت عن المسيح ورأت بعينيها نعمة الروح القدس على كلوديوس، طار صوابها وفقدت رزانتها، واجتاحها روح توبة جارف وصارت وكأنها بقلب طفلة، ولم تتردد في قبول الإيمان بالرب عند سماعها قصة تجديد كلوديوس ورؤيتها لسلوكه، وظلت تسعى لمقابلة بولس وهي عالمة أي ثمن ستدفعه نظير إيمانها الجديد أمام نيرون.

ولما سمعنا بخبر طلبها الحضور لرؤية بولس اضطربنا بسبب حقارة موقع البيت وعدم وجود أثاث فيه، فأسرعنا واشترينا بعض الضروريات، كما قدَّم إلينا بعض المؤمنين الكثير من أثاثهم ومفروشاتهم، مع أن بولس كان يمانع في ذلك قائلاً: لا يليق بمولود المذود أن يبشَّر باسمه في مظاهر الأبهة، ومسيحُ الصليب لا يجد طريقه إلى القلوب المتعالية.

وحضرت بوبيا بعد دخول المساء متخفية برفقة كلوديوس ومعها إحدى وصيفاتها الأمينات وتدعى جوليا، وقد جلستا معاً تستمعان لوعظ بولس في رعدة وخوف، ثم حضرتا الصلاة بأكملها؛ وفي ختام الخدمة وقفت في وسط المؤمنين بادية التأثر، وأعلنت إيمانها بالمسيح. وكانت تتكلم ورأسها مرفوع وعيناها إلى فوق كمن تخاطب الرب في حماس ورزانة، وتبعتها خادمتها التي كانت قد قبلت الإيمان سراً منذ أمد بعيد على يدي أندرونيكوس و يونياس المعتبرين بين الرسل، وكان لجوليا آبنتان تخدمان المسيح مشهورتان بين المؤمنين «تريفينا وتريفوسا».

وبناءً على طلب بوبيا، اعتمدت في أول الأسبوع وبعدها كسرنا الخبز. وفي أثناء كسر الخبز رأينا نوراً يملأ الغرفة التي كنا مجتمعين فيها مع أنها كانت مظلمة، إذ لم يكن بها نوافذ، فأدركنا أنه حضور الرب الذي يكون أثناء كسر الخبز، فسجدنا جميعاً تملأنا الرهبة مع فرح لا يُنطق به وسبَّحنا معاً. وودعناها بدعاء كثير لكي يحفظها الله من وشايات اليهود ومؤامراتهم.

وقد اعتادت أن تحضر أول الأسبوع وتشترك في كسر الخبز، وكثيراً ما كانت تقبِّل سلسلة بولس وتقول إنها أرفع من قلادة قيصر.

وقد قامت بوبيا بتأسيس كنيسة خاصة في أحد الأروقة الملحقة بالقصر الإمبراطوري خارج السور على التلة المعروفة باسم «البالاتين»(٦)، وكان يجتمع في هذه الكنيسة كل الذين قبلوا الإيمان من بيت قيصر وكبار موظفيه، وكان كلوديوس هو خادم هذه الكنيسة مع كلمندس(٧) الذي كان عبداً لفلاڤيوس كلمندس ابن أخت الإمبراطور دوميتيان وهو رفيق بولس الذي أخذ من روحه إخلاصاً وغيرة على كل روما.

وكان حاضراً معنا في يوم عماد «بوبيا» وفد مرسل من كنيسة فيلبي برئاسة «أبَفْرُودِتُس»، حاملين معهم عطايا مالية لبولس للخدمة في روما، مع أسئلة واستفسارات بخصوص الأمور المتخالفة التي يثيرها الهراطقة والمتهوِّدون المقاومون الذين بدأوا يناوئون الكنائس في آسيا ومكدونية ويخوِّفون المؤمنين. وقد فرحتْ بهم بوبيا وأعطتهم بعض الهدايا لكنيسة فيلبي، وهؤلاء ذهبوا ونقلوا هذه الأخبار السارة إلى كنيستهم والكنائس الأخرى، وأخبروا كيف استخدم الرب بولس ليفتح نافذة مضيئة على بيت قيصر ليشرق نور المسيح على عبيد السلطة المحرومين من حرية الروح.

وقد كتب بولس في ذلك اليوم رسالته إلى فيلبي، وذكر فيها في بدء الرسالة وفي ختامها هذا الخبر السار دون أن يذكر أسماء(٨)، وذلك ليخفِّف الأحزان عن مؤمني الكنائس بسبب الإشاعة أن بولس سيعاني محاكمة ظالمة بفعل وشاية رؤساء اليهود في أورشليم الذي أرسلوا وراءه وفداً مناوئاً محمَّلاً بشهادات الزور.

(٦) قد اكتُشف حديثاً في أحد أروقة القصر الإمبراطوري المدعو الآن «البالاتين» آثار هيكل كنيسة مسيحية من القرن الأول.

(٧) الذي ذكر اسمه في الرسالة المكتوبة من روما إلى فيلبي ٤: ٣.

(٨) «سلموا على كل قديس في المسيح يسوع. يسلم عليكم الإخوة الذين معي. يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين من بيت قيصر...إلخ. — كُتِبَتْ إلى أهل فيلبي من رومية على يد أبَفْرُودِتُس.» (فيلبي ٤: ٢١و٢٢)

٨

أما نحن فلم تمضِ علينا هاتان السنتان منذ حللنا بروما حتى صارت كلمة الله مسموعة في كل أرجاء روما و بيت قيصر وداخل دار الولاية بين القضاة ورؤساء الجند، لأن كلوديوس وكلمندس استمالا أحد قضاة روما الأربعة عشر و بعض الأمراء وأعضاءً من مجلس السناتو.

وقد كان في روما قبلنا إخوة كثيرون من المؤمنين الذين كانوا في الإيمان قبل بولس (سنة ٣٧م)، مثل أندرونيكوس و يونياس المشهوران في كل روما لأنهما زملاء الرسل(٩). وقد بدأت كنيسة روما بخدمتهم، وكانا قد قاما بزيارة أورشليم عدة مرات والتقيا هناك ببولس و بطرس و بقية التلاميذ، وكذلك أكيلا و برسكلا اللذان هما أصلاً من إقليم بُنْطُس، وكانا قد نُفيا من روما مع المسيحيين عندما طرد كلوديوس قيصر اليهود من روما سنة ٤٩م(١٠)، وذلك بسبب هياج اليهود على المسيحيين (الذين قاموا بتنصير كثير من أهل الختان)، مثلما حدث منهم سابقاً في بلاد آسيا وتسالونيكي وكورنثوس و بيريه ـــ وقد رجعا من النفي وأسسا في بيتهما مركزاً هاماً للخدمة صار أول كنيسة في روما متخصصة للمسيحيين من أهل الختان فقط(١١). وقد نزل في هذا البيت بطرس مع زوجته عند حضوره إلى روما إثر الإفراج عن بولس، وكذلك نزل فيه مرقس مع وفد من المؤمنين من مصر عندما استدعاه تيموثاوس على عجل حسب طلب بولس. وقد كتب إنجيله في هذا البيت بعد استشهاد بطرس و بولس مباشرة استجابة لإلحاح المؤمنين سنة

---

(٩) «اللذان هما مشهوران بين الرسل وقد كانا في المسيح قبلي.» (رو١٦: ٧)

(١٠) وهذا التاريخ يشير إلى بداية تأسيس الكنيسة المسيحية في روما في وسط المجامع اليهودية على يد أندرونيكس و يونياس المحسو بين بين الرسل، وعلى يد أكيلا و بريسكلا المجاهدين. و يشير المؤرخ «سوتيونيوس» الوثني إلى هذا الهياج الذي قام به اليهود و يقول إنه كان بسبب أعمال المسيحيين الذين يتبعون شخصاً يسمى المسيح (في كتابه الإرساليات ص٢٩٧).

(١١) وقد استطاع العلماء اكتشاف مكان هذا البيت العظيم القدر وحددوا موقعه بكل دقة وصحة، و بنوا فوقه الكنيسة المشهورة الآن باسم «كنيسة القديسة بريسكلا» [«سلموا على بريسكلا وأكيلا... وعلى الكنيسة التي في بيتهما» (رو١٦: ٣و٥)].

٦٤م.[١٢]

أما البيت الآخر الذي كانت تعقد فيه أكبر الإجتماعات في روما، وكنا نحضر فيه للخدمة فهو بيت أرستوبولس وناركيسوس، الذي كان يضم معظم المؤمنين من الأمم الذين قبلوا الإيمان على يد بولس واعتمدوا ـــ من العبيد وأصحاب الحرف المتعددة، وقد برز منهم خدام مشهورون أَمْبُولس، و بُوديس وكَلافَدِيَّة، وأور يانُس، وأُسْتاخيس، وكر يسكيس وتيطُس وليِنُس[١٣] الذي تولى رعاية شئون كل الخدمة في روما بعد استشهاد بطرس و بولس، وكان فصيحاً حاراً بالروح ممتلئاً من نعمة الروح القدس مقتدراً في الأقوال والأعمال، له جراءة وقدوم في كل دار الولاية حتى أمام قيصر.

وكنا قد قسمنا المدينة إلى أحياء، ووزعنا الخدمة بحسب مواهب الإخوة، فصارت كلمة الله مسموعة في كل مكان، وفي مدى سنتين كنا قد عمدنا من أهل الختان عدداً وفيراً، لا يمكن حصره، من الوجهاء وذوي النفوذ، كما من الوضعاء وأصحاب الخدم الحقيرة من بيع الثياب القديمة وأعمال الحديد، الأمر الذي لما بلغ مسامع رؤساء الكهنة في أورشليم جُنَّ جنونهم وجمعوا مجلسهم وتشاوروا بسبب الخطر الذي رأوه يتهدد نفوذهم ليس في روما وحدها بل في كل بلاد العالم، وعلى مركز الأمة اليهودية كلها لأنها كانت تستمد سلطانها ونفوذها في هذه البلاد بواسطة وفودهم ومندو بيهم الذين كانوا يقيمون في روما ليتملقوا القيصر وحاشيته و يستميلوا رجال البلاط والقضاة بالمال والهدايا والوشاية ونقل أخبار حركات كافة الهيئات المناوئة لحكم قيصر في كل البلاد ووسط كل شعوب العالم التي لهم فيها مجامع ـــ لأن اليهود لهم قدرة على التجسس ونقل الأخبار لا يجاريهم فيها أي شعب من شعوب الأرض.

لذلك لما علم اليهود في أورشليم بقرب ميعاد نظر القضية بواسطة جواسيسهم، أسرعوا

(١٢) هذا سجله لنا الكاتب المدقق أبو التقليد الكنسي القديس إيريني‍ئوس أسقف ليون في كتابه ضد الهراطقة ١٠١:٣.

(١٣) الذي صار أول أسقف على روما.

في إرسال رئيس الكهنة نفسه مع بعثة كبيرة من اليهود المقتدرين في الكلام المتخصصين في تلفيق القضايا وتزوير الحقائق، وانضم إليهم في روما رجل خطيب هو محامي الجالية اليهودية، وهو من أصل روماني وله دراية بالقانون الروماني، مشاكس، شرير، اسمه إسكندر النحاس ــ الذي تسبب سابقاً عند بدء خدمتنا في روما في إلقاء القبض على كل من تيموثاوس وأبفراس وبعض الإخوة وإلقائهم في السجن إلى أن ثبتت براءتهم وأفرج عنهم. (١٤)

ولكن عندما بلغت هذه التحركات إلى الرسل وبقية التلاميذ والقديسين في أورشليم اجتمعوا وقرروا إرسال بطرس مع وفد من القديسين لمؤازرتنا، فلما وصلتنا هذه الأخبار تشجعنا جداً وشكرنا الرب الذي وقف معنا في كل ضيقة وهو قادر أيضاً أن ينقذنا من مكايد اليهود ويثبت كنيسته لمجد ملكوته.

وفي الشهر الأول من السنة الثالثة لدخولنا روما، وصلتنا عريضة الدعوى للوقوف أمام محكمة قيصر، وهكذا تم قول الرب لبولس في الرؤيا: «لا تخف يا بولس لأنه ينبغي لك ــ لابد ــ أن تقف أمام قيصر» (أع٢٧: ٢٤). وكان ميعاد انعقاد الجلسة لنظر القضية بعد ثلاثة أشهر من الإعلان عنها حسب القانون الروماني بالنسبة لقضايا رعايا البلاد النائية، حتى يتسنى حضور الشهود للإثبات والنفي.

أما طيلة هاتين السنتين، فاليهود لم يكفُّوا عن التجسس على كل حركاتنا، وكانوا يدسُّون الوشايات ويلفقون التهم ضد المسيحيين عامة لدى كل القضاة المعينين لنظر القضية، بل لم يتورعوا أن يسيئوا إلى سمعتنا بكافة الوسائل غير المشروعة والدنيئة، حتى ثبَّتوا في أذهان رجال البلاط أن المسيحيين أعداء للجنس البشري. أما عريضة الإتهام التي قدَّموها إلى قيصر فملأوها بالإتهامات الخطيرة والثقيلة باعتبارنا ضد قيصر وأعداء للشعب الروماني وخارجين على القانون. وكانت ممضاة من كل رؤساء الكهنة وأعضاء

(١٤) عب١٣: ٢٣.

مجلس السَنْهِدريم وشيوخ الشعب.

ولكن في كل ذلك كان بولس مطمئناً حتى إنه لما أرسل رسالته إلى كنيسة فيلبي تنبأ أنه سوف يأتي إليهم سريعاً. (١٥)

وقبل انعقاد الجلسة جاءنا كلوديوس في المساء وأَسَرَّ إلينا أن القضية تثير قلق القضاة، وأنه سيتم القبض في الفجر على بولس وكل من معه، ونصحنا بمغادرة المنزل. ولكني رفضت وصممت أن أبقى مع بولس وحدي. لأن تيموثاوس كان قد أرسله بولس إلى أفسس لكي يرعى الكنيسة و يبقى هناك(١٦) وذلك لكي يستبعده من روما بعد أن أُطلق سراحه من السجن. (١٧)

وفي يوم من أيام الربيع (سنة ٦٢م)، وفي الفجر، قُبض على بولس، وعليَّ أنا، وأَبَفْراس(١٨) الذي رفض مغادرة المنزل أيضاً، وكنا قد أمضينا الليل كله في الصلاة والتسبيح. واقتادونا إلى المحكمة، ولكن نودي على بولس وحده ليَمْثُل أمام قيصر، و بقينا نحن نرى ونسمع من بعيد.

وأثناء استماع نيرون لخصوم بولس، وكان حاضراً رئيس الكهنة حنانيا الصغير ابن حنانيا الكبير، الذي شهد ضد الرب أمام بيلاطس والذي أمر برجم يعقوب أخي الرب، رأينا سنيكا الحكيم معلم قيصر جالساً بجوار القيصر يُسِرُّ إليه بكلام قبل بدء إعلان المحاكمة، فاستبشرنا خيراً لأنه يعرف بولس جيداً، وهو أخو غاليون الذي تولى على إخائية الذي اشتكى إليه اليهود ضد بولس ولكنه رفض أن يسمع لشكواهم، وطردهم

---

(١٥) فيلبي ٢: ٢٤.

(١٦) «كما طلبت إليك أن تمكث في أفسس.» (١تى ١: ٣)

(١٧) «إعلموا أنه قد أُطلق الأخ تيموثاوس الذي معه سوف أراكم إن أتى سريعاً. يسلم عليكم الذين من إيطاليا.» (عب١٣: ٢٣)

(١٨) «يسلم عليك أبَفْراسُ المأسور معي» (فليمون: ٢٣) (إلى فليمون كُتبت من رومية).

من أمام كرسي الولاية. (١٩)

وقدم إسكندر النحاس محامي اليهود اتهاماته، وكانت ثقيلة جداً شيء لا يصدقه العقل، حتى إن أحد القضاة قال إن هذه أثقل عريظة اتهام شهدتها محاكم روما. ولكنهم لم يراعوا اللياقة في الإستطالة في الكلام والتكرار لإظهار بولس وكأنه ضد نيرون شخصياً وضد شعب روما كله، مما أثار حفيظة القيصر والقضاة، خصوصاً وأن رئيس الكهنة كان يتدخل في الكلام بصورة غير قانونية و يطلب إعدام بولس، مما اعتبره القضاة خروجاً على وظيفته، فأومأ القيصر إلى رئيس القضاة فأسكت إسكندر النحاس ورئيس الكهنة.

والتفت نيرون إلى بولس، الذي كان صامتاً ووجهه يشع بنور سماوي، وسأله عن صحة هذه الإتهامات؟ فأجاب بولس أنه عاش كل حياته داعياً لقيصر ولكل من هم في منصب وكل رجال الجيش في كل أدعيته وصلواته إلى الله خالق الكون، ومعطياً وصيته لكل مسيحي أن يلتزم بالطاعة والخضوع للولاة والسلاطين باعتبارهم معيَّنين من الله، وأنهم يحملون السيف لرفع شأن القانون والعدالة ولحماية الحق وكل الرعية ضد الأشرار.

واستطرد بولس كاشفاً عن سر خصومة اليهود الحقيقية له ولكل المسيحيين قائلاً:

ـــ إن هؤلاء الخصوم اليهود هم أقربائي و بني جلْدتى، والخصومة القائمة بيني و بينهم لا تقوم على أساس أمانتهم للسيد الأوغسطوس، وعدم أمانتي لعظمته كما يدَّعون أو مقاومتي لأوامر وأحكام روما العظيمة. ولكن الخصومة بعيدة كل البعد عما يمس كرامة السيد الأوغسطوس أو ما يمس جلال مُلكه وعظمته وعدالته، كما لا تمس أيًّا من شعب روما العظيم، ولكن الخصومة بيني و بينهم تقوم على أساس حياة البر والطهارة والتقوى وقداسة السيرة التي جاء بها المسيح (كراستوس ـــ هكذا كان ينطقها الرومان وليس كريستوس، وتعني الصالح، وليس الممسوح)؛ وقدَّم حياته ذبيحة لله ليرفع حياة بني

(١٩) سفر الأعمال أصحاح ١٨: ٩ــ١٧.

الإنسان إلى سيرة الآلهة و يغلب الموت، ليكون لنا به حياة أفضل ودائمة مع الله بعد الموت، فمن أجل عقيدة القيامة من الأموات وأشياء أخرى تتعلق بنقص وضعف العبادة اليهودية هم يحاكمونني و يطلبون قتلي، وقد شرعوا في قتلي بعيداً عن أعين القيصر عدة مرات، وأنا مواطن روماني لي شرف الرعوية تحت سلطانكم العظيم. وأنا لم أرفع دعواي أمام السيد الأوغسطوس تهرُّباً من عدالة فِسْتُوس — كما يقول محامي الخصوم — ولكن تخلُّصاً من تهديد اليهود بقتلي، ولثقتي أنني بوقوفي أمام عدالتكم، باعتباركم قاضي المسكونة كلها وأب العدالة على الأرض، سوف أنال عفوكم.

استمع نيرون إلى دفاع بولس فاستحسن الكلام جداً و بدا عليه الإرتياح والسكينة، وخاطب بولس قائلاً:

— لا تخف أيها الأسير، نحن هنا أصحاب الحق المقدس بصفتنا مبعوثي الآلهة المسئولين عن تنظيم علاقة الآلهة مع رعايانا من بني البشر، وقد فحصنا أمرك مع القضاة بأكثر تدقيق ووجدنا أنك لا تستحق الموت ولا السجن كما كتب إلينا حكامنا فيلكس وفِسْتُوس وأغر يباس، وقد أمرنا بالإفراج عنك...

ثم اتجه ناحية القضاة معطياً أمره باتخاذ الإجراءات اللازمة للإفراج الفوري بعد دفع الكفالة، بولس وكل من قُبض عليه معه...

لم نصدق آذاننا، واقتادونا إلى كاتب المحكمة الذي أطلق سراحنا. كان ذلك في بكور الربيع سنة ٦٣م.

وللحال ذهبنا إلى بيت بر يسكلا وأقمنا صلاة شكر طو يلة مسبِّحين الرب الذي أنقذنا من فم الأسد. وفي هذه الأثناء كتب بولس رسالته الثانية إلى تيموثاوس. (٢٠)

---

(٢٠) «إسكندر النحاس أظهر لي شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله، فاحتفظ منه أنت أيضاً لأنه قاوم أقوالنا جداً. في إحتجاجي الأول لم يحضر معي أحد بل الجميع تركوني، لا يُحسب عليهم، ولكن الرب وقف معي

و بعد الإفراج عنا بأسبوعين وصل إلى روما وفد القديسين بأورشليم ، ومعهم بطرس وزوجته ، مارّ ين بكورنثوس(٢١)، كما وصل أيضاً من مصر مَرْقُس، لأن تيموثاوس أرسل إليه حسب طلب بولس لكي يحضر للخدمة في روما .

وهكذا ابتدأت الخدمة تنشط ، ليس في روما فقط ، بل وانتشرت كلمة الله في كل أنحاء البلاد ، فدخل الإيمان كثير من أهل الختان ومن بيت قيصر وعامة الشعب ، وصار اسم بطرس و بولس مسموعاً على كل فم بسبب الآيات والمعجزات التي أجراها الله على أيديهما ، لأن المؤمنين كانوا يأخذون العصائب والمناديل التي كان يضمد بها بولس جسده و يضعونها على المرضى فيبرأون ، وكان بطرس يلمس المرضى و يدعو باسم الرب فيُشْفَوْن. وكان مرقس لا يكف عن الوعظ في كل أنحاء روما و بالأخص في أوساط الفلاسفة ، وكان يحفظ الإنجيل عن ظهر قلب . وكثيراً ما كان يترجم لبطرس كلماته التي كان يخاطب بها المؤمنين لأن بطرس لم يكن يعرف اليونانية .

ولكن لم يهدأ اليهود الذين خذلتهم محكمة روما فابتدأوا يناوئون المسيحيين و يكتبون الشكاوى ضدهم وتربصوا لبولس لكي يقتلوه ، فاجتمع الإخوة واستقروا على أن يغادر بولس روما ؛ فاختاروني للسفر معه وكذلك تيطس وأراستس وتروفيمس ، وكان يود في البداية أن يتجه إلى أسبانيا ، ولكننا استحسنا أن نمر على الكنائس التي تركناها منذ سنتين لأن الأخبار التي وصلتنا عن مقاومة المتهودين كانت تقلق بولس ، فأقلعنا وتيموثاوس معنا إلى نيكو بوليس ، عازمين أن نشتّي هناك . وقد كتب بولس بهذا الخصوص إلى تيطس حتى يرتب إقامتنا هناك(٢٢). وذلك بعد أن مررنا بكر يت

وقواني لكي تتم بي الكرازة و يسمع جميع الأمم ، فأنقذت من فم الأسد وسينقذني الرب من كل عمل رديء ويخلصني لملكوته السماوي . » (٢تى٤ : ١٤)

(٢١) أنظر مؤلَّف « دوشسن » الجزء الأول ، فجر التاريخ في الكنيسة المسيحية ، ص٤٥ .

(٢٢) « حينما أرسل إليك أرتيماس ، أو تيخيكس بادر أن تأتي إليّ ، إلى نيكو بوليس ، لأني عزمت أن أشتّي هناك . » (تيطس ٣ : ١٢)

وتـركـنـاه هـنـاك(٢٣)، ذاهـبين إلى مكدونيا بعد أن اطمأن بولس أن تيموثاوس سيحل مكانه في أفسس. (٢٤)

وقد أصاب بولس حزن شديد، لأن اليهود المتنصرين الذين رجعوا إلى تكميل فرائض الناموس حافظين مرة أخرى أنسابهم حسب أسباطهم الأولى(٢٥) قد قلبوا إيمان الكنائس في كل آسيا، مما جعل بولس وهو في حزنه يختصر سفره في تلك النواحي و يعيِّن تيموثاوس على أفسس وأراستس في كورنثوس، متجهاً بقلبه صوب أسبانيا التي كان الروح قد أشار عليه بضرورة غرس الإيمان فيها. وقد ترك بولس عباءته الصوف التي يشتِّي بها في ترواس عند كاربُس، وكذلك الكتب والرقوق، لأنه كان في عجلة لكي يعبر البحر قبل حلول الشتاء.

وهكذا أسرعنا بالسفر، ونزلنا في مالطة «ميليتس»، واضطررنا للبقاء فيها فترة بسبب مرض تروفيمس، وأخيراً تركناه مريضاً هناك(٢٦)، لأننا كنا نخشى الرياح في هذا الموسم، وكنا نود البقاء في روما حتى يعبر الشتاء ولكن أخيراً صمم بولس على السفر إلى أسبانيا فأقلعنا من مالطة ووصلنا بسلام إلى تراجونا على الشواطىء الشرقية لأسبانيا في أواخر الخريف سنة ٦٣م. (٢٧)

(٢٣) «من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة شيوخاً كما أوصيتك.» (تيطس ١: ٥)

(٢٤) «كما طلبت إليك أن تمكث في أفسس إذ كنت أنا ذاهباً إلى مكدونية لكي توصي قوماً أن لا يعلِّموا تعليماً آخر.» (١تى ١: ٣)

(٢٥) «لكي توصي قوماً أن لا يعلِّموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافات وأنساب لا حد لها تسبب مباحثات دون بنيان الله الذي في الإيمان.» (١تى ١: ٣و٤)

(٢٦) «أراسْتُس بقي في كورنثوس، وأما تروفيموس فتركته في ميليتس مريضاً.» (٢تى ٤: ٢٠)

(٢٧) القارىء المدقق في فحص الرسائل لتيموثاوس وبقية الرسائل الرعوية، يكتشف بلا أي صعوبة أن القديس بولس أُطلق سراحه بالفعل، وأنه أكمل جزءاً هاماً من نشاطه الكرازي بعد إطلاق سراحه، وهذا يعززه ما سبق أن نطق به بالروح القدس أنه سيزور أسبانيا. وقد اتفق معظم المؤرخين البارزين والمعتدلين على هذه الحقيقة،

وما أن وطأت أقدامنا هناك حتى خرج كثير من المؤمنين لإستقبالنا، لأن الإيمان كان قد بلغ أسبانيا قبل أن نصلها، أما اليهود هناك فكانوا أقل تعصباً، وقد استقبلونا في مجامعهم وأنصتوا إلى البشارة المفرحة بانفتاح قلب، وقَبِلَ منهم الإيمان عددٌ كبير، لأنهم كانوا في غُربة نائية ومتعطشين لكلمة الخلاص، خصوصاً في قرطاجنة وسافيلا وألفيرا حيث غرس بولس قواعد الإيمان وأسس نواة الكنائس هناك.

ولكن لم يمضِ على نزولنا على شواطىء أسبانيا أكثر من تسعة شهور، حتى أرسل الولاة وقبضوا علينا بناءً على أوامر صدرت من روما لإعادتنا للمحاكمة هناك أمام كرسي نيرون. فأدركنا أن اليهود نجحوا في استثارة القيصر ضدنا مرة أخرى.

وما أن وصلنا إلى شواطىء إيطاليا وكان ذلك في أوائل صيف سنة ٦٤م حتى استاقونا إلى سراديب الإعتقال المظلمة. وقد علمنا من الإخوة الذين زارونا أن الحالة في غاية الخطورة والإضطراب وأن القيصر خرج عن وعيه بعد أن علم من اليهود كل أخبارنا وأفشوا له أسرار زوجته، وأروه الكنيسة السرية التي في قصره وقدموا له بيانات بأسماء الذين تنصَّروا من بيته ومن بلاطه ومن رؤساء الجند والسناتو و بعض الأمراء.

وكانت النتيجة أن أمر نيرون في هياجه بقتل زوجته وكل الذين شك في ولائهم لعبادته، ولم يكن من حكيم واحد في روما يرد لنيرون عقله وصوابه لأن سنيكا الحكيم كان قد اعتزل الحياة العامة منذ سنة ٦٢م واغتاله تلميذه نيرون بعد ذلك، ليخلو له الجو ليصنع هواه دون مؤنِّب.

وعلمنا أنهم قبضوا على بطرس وكل الإخوة الذين كانت أسماؤهم مكتوبة في الكشوف التي قدمها اليهود للقيصر، عدة ألوف من الرجال والنساء، واستودعوهم

أمثال: نياندر، جيسلر، بليك، إيوالد، لانج، ساباتيه، وجودت، حتى رينان. وكذلك معظم الكتَّاب الإنجليز أمثال ألفورد، ووردز ورث، هوسون، ليو ين، فارار، أليكوت، لايت فوت. هذا بالإضافة إلى شهادة الآباء العلماء الأوائل اكلمندس الروماني، يوسابيوس القيصري، كيرلس الأورشليمي، إبيفانيوس، ذهبي الفم، چيروم، ثيئودوريت.

السجن مدة طويلة. وفي هذه الأثناء كتب بطرس رسالته الثانية يستودع بها كل المؤمنين من أهل الختان الذين في الشتات، إذ علم يقيناً بروٌيا من الرب أن خَلْعَ مسكنه قد صار قريباً(٢٨)، ولكنه كان في ملء الهدوء والسلام لا يكف عن الوعظ، وقد رمز في رسالته عن روما ببابل شعوراً منه بوضع الكنيسة الحرج في روما الذي صار أشبه بالشعب قديماً في أسر بابل، فتيقنًا أن النية قد بيتت للقضاء على المسيحيين.

وكان بولس يشعر بنفس الحال وقد قال كلمته المشهورة: «وقت انحلالي قد حضر»(٢٩). ولم يكن يكف عن الصلاة والتسبيح ولا لحظة واحدة.

و بينما نحن نترقب الحوادث وننتظر كل حين إقدام الجلادين، إذ في أحد ليالي الصيف و بالذات في التاسع عشر من شهر يوليو، نسمع دمدمة مرعبة تجتاح سماء روما ولهيب ناريضيء السماء من أقصاها إلى أقصاها، والرياح تنفخ بعنف تاركة وراءها سُحباً من الدخان الكثيف كان يُطبق على أنفاسنا في سراديب السجن، ستة أيام وسبعة ليالي، والنيران والحرائق والدخان تجتاح روما، والكل في ذعر ورعب. وكنا في السجن لا ندري ولا نفهم شيئاً، ننتظر مصيرنا المحتوم! و بعد أن خمدت النار فترة، اشتعلت مرة أخرى بأكثر عنف وظلت تتأجج بصوت مرعب ثلاثة أيام أخرى متوالية.

وقد علمنا بعد ذلك أن من أحياء روما الأربعة عشر لم يسلم من الدمار إلا أربعة أحياء فقط، وقد مُحي ثلاثة أحياء من الوجود محواً تاماً، والعجب الذي يثير الدهشة والشكوك أن حي اليهود لم يصبه أي أذى ولم تمسسه النار!!

وقد سرت في روما إشاعات متعددة عن سبب الحريق فبعضهم كان يقول إنه كان بيد نيرون نفسه لكي يعيد بناء روما جديدة على آسمه «نيرو پوليس»، والبعض الآخر

(٢٨) «عالماً أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع المسيح أيضاً. فاجتهدوا أن تكونوا بعد خروجي تتذكرون كل حين بهذه الأمور.» (٢بط ١: ١٤و١٥)

(٢٩) «وأنا أسكب سكيباً، ووقت انحلالي قد حضر، قد جاهدت الجهاد الحسن.» (٢تي ٤: ٦)

كان يقول لا بل المسيحيون أعداء الجنس البشري هم الذين أحرقوا روما، وأشياء أخرى كثيرة. أما الأخبار الصادقة فقد بلغتنا من المقربين إلينا من اليهود وهي أن حريق روما دبَّره وخطَّط له بعثة اليهود المرسلة من أورشليم برئاسة حنانيا رئيس الكهنة أقسى اليهود قاطبة(٣٠)، واضعة في تصميمها إبادة لا بولس فقط ولكن كل مسيحيي روما، وكان همهم أن يركزوا الكراهية ضد المسيحيين في العالم كله وليس في روما وحدها، لينجوا هم من هذه الكراهية التي كانت تحيط بهم في كل مكان.

وقد صدق نيرون كل ما قدمه له اليهود(٣١)، لأنهم جاءوا بشهود زور قالوا إنهم شهود عيان، ودلُّوا الجند على البيوت التي كانت تُعقد فيها الإجتماعات أثناء وجود المؤمنين فيها فقبضوا عليهم، وقدموا بيانات بأسماء كثير من المؤمنين الذين رفضوا أداء اليمين أمام نيرون، ولم يقدموا أي اعتذار أو تراجع، مما أهاج سخط نيرون وأصدر منشوره المشئوم سنة ٦٤م بالقبض على جميع المسيحيين لإتهامهم بحريق روما.

هذا ما صنعه اليهود في روما ولكن الله جازاهم في هيكلهم وفي مدينتهم(٣٢) التي هُدمت وأُحرقت بالنار، وطُرد اليهود من ديارهم وتشتتوا في جميع أنحاء العالم، مكروهين أينما وُجدوا. (٣٣)

---

(٣٠) هذا هو تقرير يوسيفوس نفسه عن حنانيا الصغير رئيس الكهنة أبن حنانيا الكبير صالب المسيح.

(٣١) يقول جيبون إن اليهود كانوا يملكون ناصية دفاع قوي جداً داخل القصر ـــ جزء أول ص٤٢٨ ـــ وقد كان من رجال البلاط الإمبراطوري كثير من اليهود في وظائف ليست صغيرة، وكان من أقرب الشخصيات المحبوبة لدى نيرون الممثل اليهودي اليتيروس كما يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي.

(٣٢) يلاحظ أن لوقا نجا من روما وعاش حتى صار عمره ٨٢ سنة حسب التقليد.

(٣٣) لقد عانى اليهود أنفسهم في روما أهوالاً أضعاف ما صنعوا بالمسيحيين، وذلك على ممر العصور، على أيدي باباوات روما؛ أهوالاً لا يستطيع العقل أن يصدقها، فقد حوصروا في الحي الذي سكنوه وهو أول حي يُدعى بلغة اليهود جيتو Ghitto وتنطق بالعبرية «كيدو» وتعني «القطع»، وبالإيطالية borghitto وتعني حارة ضيقة. وإيطاليا هي أول دولة في العالم حددت إقامة اليهود، وذلك بأمر الباباوات في القرن الحادي عشر. وأول بابا أمر بمحاصرتهم في حاراتهم هو بولس الرابع سنة ١٥٥٦م. وأقام أسواراً وأبواباً عليهم، تُغلق ولا تُفتح، ولا يُصرح لهم بمغادرتها ليلاً وفي أعياد المسيحيين، وأعطى لهم أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. وفي أيام الباباوات اكلمندس الثامن

و بدون محاكمة، أصدر نيرون أمره بإعدام المسيحيين. وكانت وسيلة الإعدام والتعذيب المحببة عند نيرون هي الصَلْب، وإشعال الأجساد بالنار ليلاً لتنير الملاعب، ألوف من القديسين استُشهدوا، رجالاً ونساءً بلا تفريق...

وقد صدر حكم الصَلْب على بطرس ونُفِّذ الحكم على رابية الفاتيكان.

أما بولس فلكونه يحمل الرعوية الرومانية لم يَجُز صلبه، فأمر نيرون في نفس اليوم بأخذ رأسه بحد السيف على الشاطىء الأيسر لنهر التيبر على بعد ثلاثة أميال من روما. (٣٤)

واكلمندس الحادي عشر وإينوسنت الثالث عشر، حُرم اليهود من الوظائف العامة ومن العمل أو التجارة، إلا في تجارة الملابس القديمة (الروبابكيا) وفي أعمال الحدادة. وجاء البابا غريغوريوس الثالث عشر وأصدر منشوراً بإجبار اليهود لحضور الوعظ يوم السبت في الكنائس المسيحية وكان يرسل الجنود و يسوقهم من بيوتهم بالسياط نساءً وأطفالاً ورجالاً، والذي لا يُصغي إلى الوعظ يُضرب بالسياط. ولم يتوقف هذا الأمر البابوي إلا على أيام بيوس التاسع، كما لم يُلغَ نظام الجيتو في إيطاليا إلا في سنة ١٨٨٧م. (أنظر تاريخ الكنيسة المسيحية تأليف فيليب شاف، الجزء الأول ص٣٦٥ـ٣٦٦).

(٣٤) أ ــ يذكر يوسابيوس أن كايوس (أحد أعضاء كنيسة روما في عهد زفيرنيوس أسقف روما) سنة ٢٠٠م يحدد وجود مقبرتين لبطرس و بولس في روما مكتوب عليهما اسميهما، و يقول في مساجلة مع بروكليس: [ولكني أستطيع أن أبيّن آثار الرسولين، لأنك إذا ذهبت إلى الفاتيكان ــ بجوار سيرك نيرون ــ أو إلى طريق أوستيا، لوجدتَ آثار هذين اللذين وضعا أساس هذه الكنيسة.] (يوسابيوس ٢ : ٢٥).

ب ــ أما أنهما استشهدا في وقت واحد فهذا تفهمه من رسالة ديونيسيوس أسقف كورنثوس إلى أهل روما: [إنكم بمثل هذه النصائح قد ربطتم معاً ما غرسه بطرس و بولس في روما وكورنثوس لأن كليهما غرسا، وعلّمانا في مدينتنا كورنثوس وروما واستشهدا في وقت واحد.]

ج ــ و يقرر ترتوليان أن بولس استشهد بحد السيف (ضد المراطقة ٣٦).

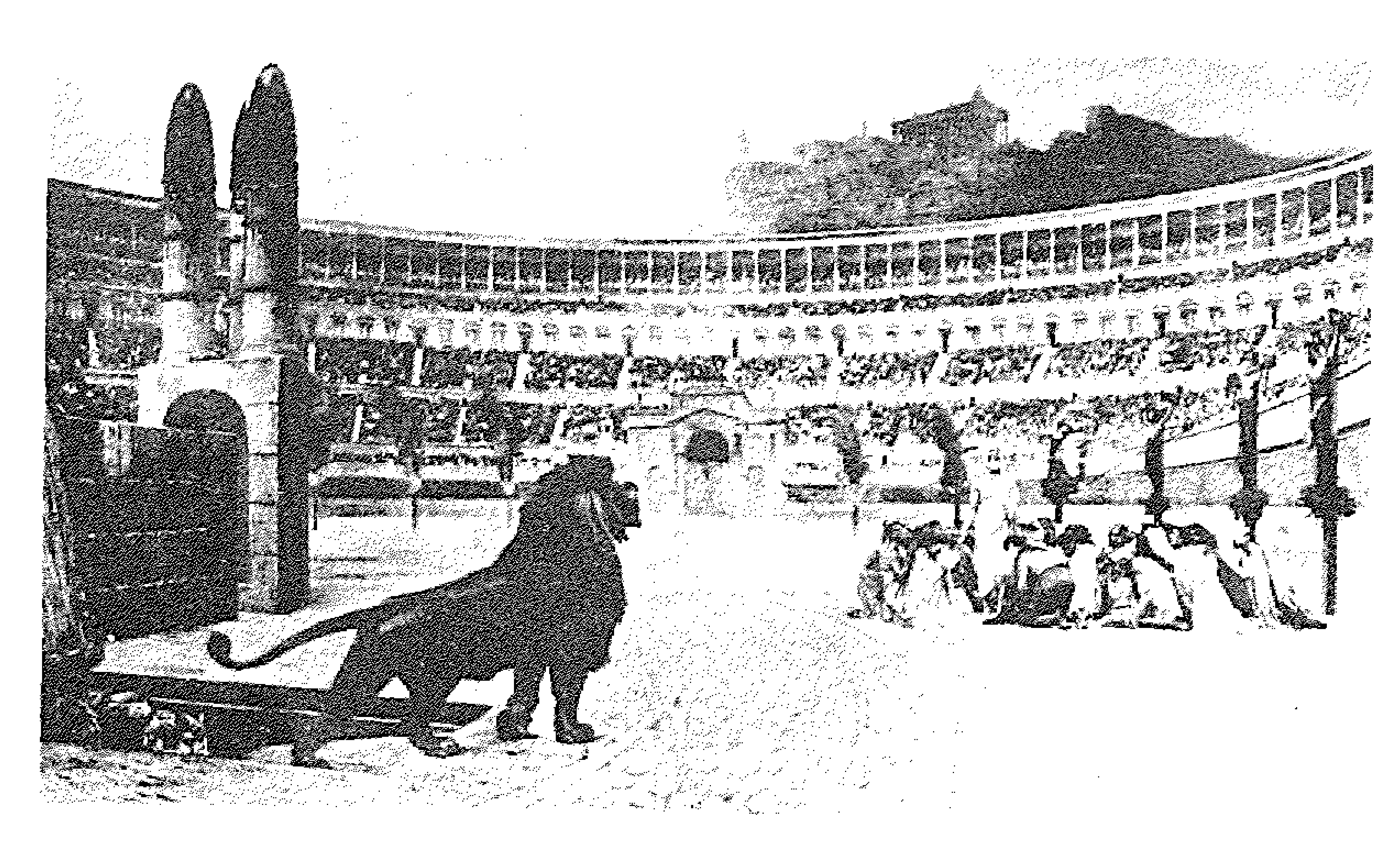
د ــ وقد أقيم أول احتفال جنائزي بدفن رفات القديس بطرس في سرداب سبستيان، والقديس بولس في طريق أوستيا في يوم ٢٩ يونية في أيام البابا ليبريوس سنة ٢٥٨م.

المراجع:

١ ـــ رسائل القديسين بطرس و بولس وسفر الأعمال.
٢ ـــ تاريخ اليهود ليوسيفوس. [٣٥]
٣ ـــ أقوال المؤرخ الوثني تاسيتُس[٣٦]، والمؤرخ الوثني بْلِيني الصغير[٣٧]، والمؤرخ الوثني المعاصر لهما سوتيونيوس. [٣٨]
٤ ـــ أقوال العلاّمة ترتّوليان.
٥ ـــ رسالة اكلمندس الروماني الأولى إلى أهل كورنثوس.
٦ ـــ تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري.
٧ ـــ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية للمؤرخ جبون.
٨ ـــ تاريخ الكنيسة لنياندر.
٩ ـــ تاريخ الكنيسة للعلاّمة شاف.
١٠ ـــ تاريخ الكنيسة للأب دوشسن.
١١ ـــ الحياة في الكنيسة الأولى للآنسة ولسفورد.
١٢ ـــ الكنيسة الأولى : هنري تشادو يك.
١٣ ـــ فجر المسيحية : يوهانس فايس.
١٤ ـــ تاريخ الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية : ستيفن بنكو.

---

(٣٥) فلافيوس يوسيفوس (٣٧ـــ١٠٠م) يهودي ومواطن روماني برتبة چنرال (وثني).
(٣٦) بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس (٥٥ـــ١٢٠م) قنصل وحاكم مقاطعة رومانية (وثني).
(٣٧) بليني الصغير (٦١ـــ١١٤م) حاكم بيثينية بآسيا الصغرى (وثني).
(٣٨) غايس سوتيونيوس ترانكيليوس (٧٠ـــ١٥٠م) سكرتير تراجان صديق بليني الصغير (وثني).

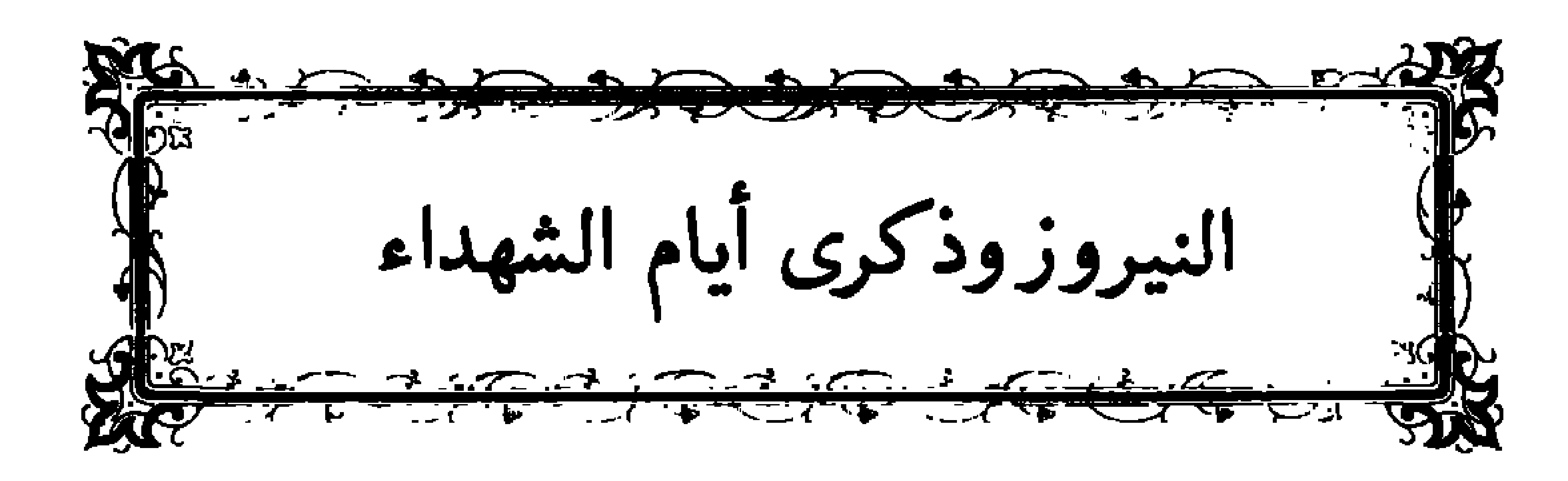


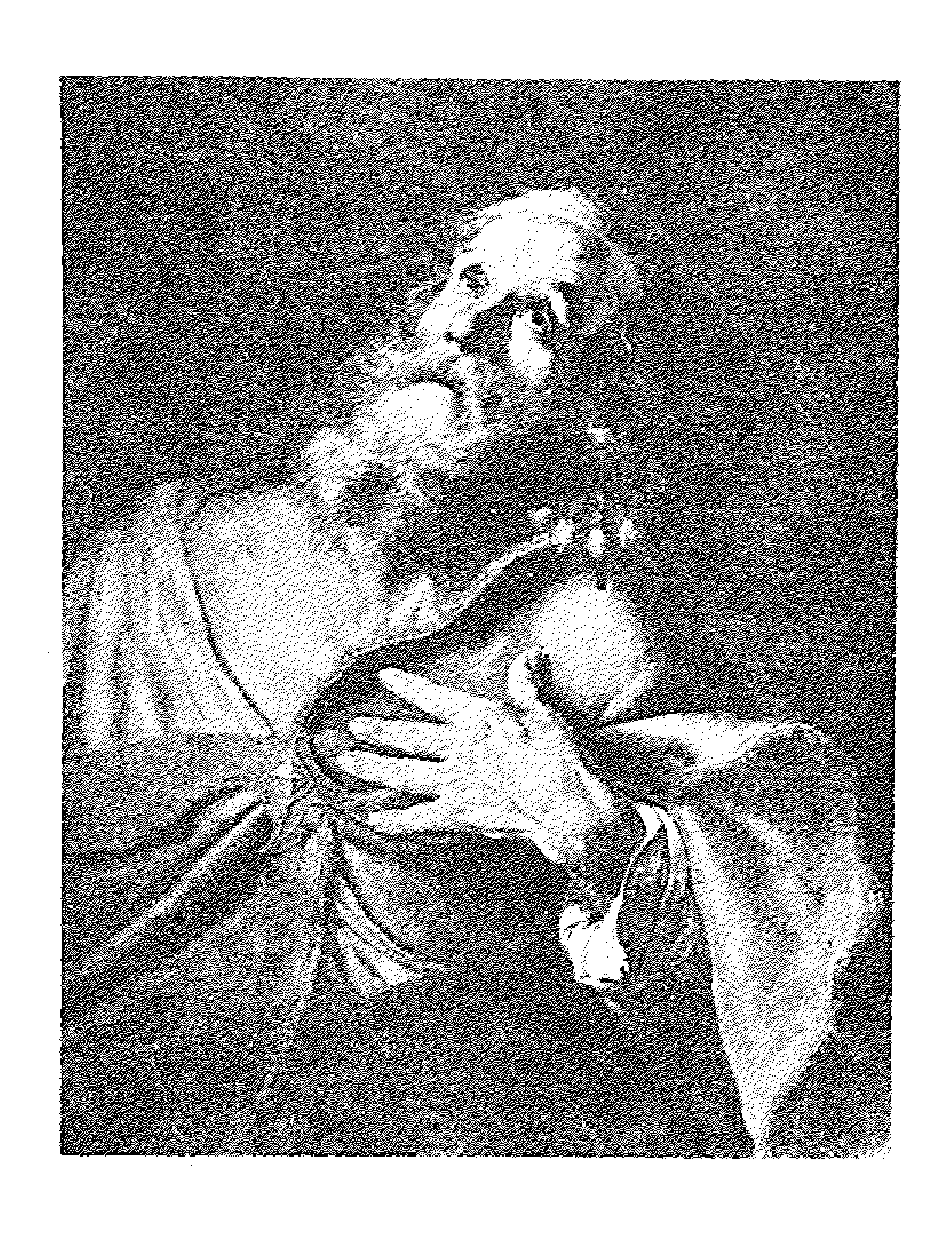
جماعة من الشهداء يصلّون في ساحة الإستشهاد

وفي وسطهم شيخ يقودهم ويثبتهم

وذلك قبل الإستشهاد

(٤)





القديس الشهيد إغناطيوس الأنطاكي

□ إيه يا أيام الشهداء
□ كم صرت عندنا جميلة جداً أيتها الأيام الحزينة!
□ كتاجٍ مجد على رأس الكنيسة مرصَّع بالدموع!
□ وقِلادة بطولة حمراء لصراع مظفر في ساحة الإستشهاد!
□ ووثيقة حقوق وكرامة ورثتها كل البشرية من يد الكنيسة.
□ وما محكمة لاهاي وعصبة الأمم وحقوق الإنسان إلا صوراً معدَّلة من «منشور ميلان».
□ وأنتَ يا «منشورَ ميلان» فأنت بالحق ينبغي أن تكون بحق ٍحجر الأساس في وحدة الكنائس.
□ وأنتِ يا كنيسة الحب المذبوح، آلامُ شهدائك صارت لكِ كمخاض العذراء في ظلام المغارة.
□ وأنينُهم صار كقرارٍ لترنيمة ألَّفتها الملائكة يوم الصلبوت، وردَّدتها المريمات فجر القيامة.

بداية عصر الإستشهاد:

أشرقت الشمس في ذلك اليوم من شهر أغسطس سنة ١١٠م ثقيلة حزينة تلفها هالة من السواد، وألقت بثقلها وحرِّها كله على الطريق الصخري الممتد وسط جبال طوروس التي تربط بين أنطاكية وأزمير بآسيا الصغرى، وكانت الجماعة السائرة والراكبة منهوكة القوى، تسير والغبار يتسابق أمامها ويجري خلفها، يخيم عليها الصمت الحزين، عشرة جنود رومانيون قساة أشد ما تكون القسوة، مربوط في أيديهم شيخ جليل بلحية مسترسلة، أخذ منه الإعياء كل مأخذ، لا يحتمل المسير ولا يطيق الرّكْب، بريق الرجاء والبشاشة يملأ عينيه ووجهه، بالرغم من العرق المتصبب والقيود والسلاسل والكدمات!...

هـذا هـو القديس إغناطيوس أول أسقف على أنطاكية بعد بطرس الرسول ، كان في طريقه إلى الجلجثة عبر روما ليفتتح رسمياً عصر الإستشهاد للكنيسة الفتية ، ولم يكن قد مضى على استشهاد بطرس و بولس أكثر من خمسين سنة أو أقل(١)... تاركاً وراءه شعبه الحزين يبكي و يصلي و يترسم خطاه.

وفي طريق آخر متقابل يتجه أيضاً إلى أزمير من الجنوب، كانت جماعة أخرى تستحث الخطى تجمعت من أفسس وماغنيزيا وترال على هيئة وفود، أسرعت الكنيسة في تلك النواحي لإرسالهم برجاء توديع إغناطيوس العزيز المزمع أن ينال إكليل الشهادة ، لأن هذه كانت عادة الكنيسة في تلك الأيام المملوءة حباً ووفاءً... وكان بين الوفود ثلاثة أساقفة وكاهنان وشماسان. وكان الحماس يتّقد في قلوبهم حتى بدوا في سيرهم وكأنهم يركضون، فالشوق والفرح والحزن والمحبة والغيرة والحماس اختلطت معاً في صدورهم ، وكانت عيونهم ساهمة شاخصة إلى ما وراء أزمير والبحر وروما والأرض، نحو السماء موطن الشهداء المعَدّ...

أما الوفود المرسلة للوداع فدخلت أزمير من الباب الجنوبي ، وأما العشرة ضباع ومعهم إغناطيوس فدخلوا من الباب الشرقي، وكان في استقبالهم على مشارف المدينة رهط كبير من المؤمنين يترأسهم أسقفهم پوليكارپ في وسط كليروسه . و بعد محاولة قصيرة من التفاهم ، انتحى الضباع العشرة إلى مائدة لذيذة بعد أن فكوا قيود فريستهم . و برضاهم وأمام أعينهم التأمت جماعة المؤمنين والأساقفة يتعانقون والدموع تسحّ من عيونهم سحّاً ، و بدا الموقف رهيباً والصمت يخيم على الجميع ، وإغناطيوس في وسط الجماعة شامخ في هدوئه ورزانته متحلياً برجاء وإيمان يفوق الوصف !...

وظهر بين الجماعة الأسقف پوليبيوس **Polibius** أسقف ترال ، بحجمه الهائل وقلبه الوديع كطفل يداعب إغناطيوس و يتوسل لو يسمح له أن يُقلع معه ليشاركه

(١) استشهاد القديسين بطرس و بولس هامتي الرسل سنة ٦٤م.

النصيب الطاهر!... كما ظهر في وسطهم أيضاً الأسقف أونيسيموس أسقف أفسس آبن بولس الذي ولده في قيوده، عتيق الحب الإلهي والمدافع البارع عن الإيمان المسلَّم له من القديسين.

أما بوليكاربوس فقد ظهر متقدماً عنهم قليلاً في السن، الذي كان ينتظر بالروح نفس المصير المبارك.

و بدأ القديس إغناطيوس يتكلم عن مهمته العليا وشعوره الإلهي من جهة الشهادة، معتبراً أنها إكليل كرامة الأسقف، وعربون حريته الحقيقية، وعلامة تلمذته الفعلية للصليب، ودالته الوحيدة لحب المسيح؛ وأن ليس أمام الإنسان المسيحي في الأرض كلها ما يوازي عمل الشهادة من كل جهادات الإنسان...

ولما شعر القديس بعطفهم وقد بدأ يتزايد، وكأنهم يطلبون منه أن ينثني عن عزمه، حزن للغاية واعتبر منهم ذلك وكأنه تعذيبٌ أشد على نفسه من التعذيب في ساحة الإستشهاد، فكفَّت الجماعة عن توسلاتها والدموع تنهمر من عيونهم...

ولكن لم تَدُمْ الإقامة في أزمير طويلاً، فبنهاية شهر أغسطس كانت قد أقلعت به المركب صوب روما عَبر ترواس، مروراً بمدينة فيلبي التي منها أرسل رسائله السبعة لكل النواحي، وهي الرسائل التي لا تزال باقية حتى الآن تحمل لنا أجمل ذكرى لأفخر أيام في تاريخ أسقف!...

هذه الأيام التي كانت تعبر آنئذ ثقيلة أشد ما يكون الثقل على قلوب الكنائس المحيطة، تلازمها مرارة وغصة في الحلق شديدة، ولكنها خطَّت على جبين الكنيسة لحناً حزيناً مجيداً صادقاً امتزج بالعبادة والقُبلة والعشاء والتسبيح، فصار جزءاً حياً من تراث مسلَّم مع الإيمان عبر الدهور حتى هذا اليوم، فكل لحن حزين في الكنيسة قد صاغته تعاذيب الشهداء وأهوال تلك الأيام...

ما أجملك أيتها الأيام الحزينة، فقد ورثنا منك أروع ألحاننا الحزينة، فمن ذا الذي يسمع لحن «آبيكران»[٢] ولا يذرف الدمع ثخيناً؟ هائماً في ذكرى الشهداء الذين كتبوا بدمائهم قصة الكنيسة و بآلامهم صاغوا ألحانها الحزينة؟

وفي روما وعلى يد الإمبراطور تراچان (٩٨–١١٧م) تقبَّل إغناطيوس وهو مرهف السمع نص الأمر الإلٰهي للصعود في المركبة النارية، وإنما مُصاغاً بلغة رومانية فيها ألفاظ عن تعذيب وآلام وموت ووحوش، لم يعبأ لفهمها إغناطيوس لا بكثير ولا بقليل، لأن عينيه كانتا على مركبة إسرائيل وفرسانها والعاصفة واللُّقيا وتحقيق أحلام الصبوة وكل ما اشتهته نفسه!!...

وفي لحظات حظت الكنيسة بتاج من أفخر تيجانها، وروح أسقفية شفيعة من أثمن مواريثها، وصار إغناطيوس بآلامه الطوعية شاهداً وشريكاً ومكملاً لآلام المسيح...

وابتدأ عصر الإستشهاد عنيفاً دموياً مروعاً...

استمرار الإضطهاد حتى بداية القرن الرابع:

توالت الإضطهادات بلا هوادة في كل أنحاء الغرب والشرق، ولكنها تركزت جداً في الشرق، واستمرت الإستشهادات والكنيسة جالسة على رابية الجلجثة تسجل على قلبها أسماء أولادها الأماجد، وتضع أمام كل واحد يومه الفاخر الذي اصطبغ فيه وعبر، كانت تتمخض بكل واحد فواحد منهم، كمخاض العذراء في ظلام المغارة وتئن عليهم أنيناً كقرار ترنيمة، ألَّفتها الملائكة للمسيح المصلوب، ورددتها المريمات فجر القيامة...

ومن إغناطيوس الشهيد حتى بكور القرن الرابع (سنة ٣٠٣–٣١٣م) لم تكُف موجات الإضطهاد العنيف والكراهية المرة التي كان ينفخها الشيطان في قلوب الأباطرة والقياصرة والحكام ضد الكنيسة، التي كانت كمركب صغير في بحر متلاطم تتقاذفها

---

(٢) لحن لسائر القديسين مطلعه: أسمك عظيم.

الأمـواج مـن كـل جـانـب، غير أن شـراعـهـا السامق كان دائماً يلامس السماء، فكانت تـتـقـوى سـراً ولم تـقـوَ عـليهـا أبـواب الجحيم!... كان يموت كل يوم أعظم أساقفتها وأفخر رجالاتها، أما هي فكانت تنمو وتزداد!...

تُصادَر أموالها، وتُحرَق مؤلفاتها، وتُهدم مبانيها، و يُسجن رؤساؤها، أما هي فكانت تجدد الـقـوة كـل صـبـاح، وروح الله يـلـمُّ شـمـلـهـا و يوحد صفوفها فيعلو صوتها وتزداد هيبتها!...

المحنة الكبرى:

ومـا أن اعـتـلى دقـلـديانوس عرش الإمبراطور ية (سنة ٢٨٤م) حتى دخلت الكنيسة محنتها الكبرى! بل تاريخها الأمجد (صارت سنة ٢٨٤م بدء التقويم القبطي للشهداء).

نقل دقلديانوس عاصمة مُلكه من روما إلى نيقوميديا بآسيا الصغرى (مكانها بالغرب مـن الأسـتـانـة الـحـديثة الآن)، لكي يصد غارات الشرق و يتفرغ لمناوأة أعدائه، وأعطى أحـد قـواده المـدعو مكسيميانوس لقب «أوغسطس» وولأه كل الغرب، وكانت ميلان بإيطاليا عاصمته، وكانت له صلاحية الإمبراطور، غير أنه ظل خاضعاً لدقلديانوس.

أما في الشرق فعين جاليريوس حاكماً على سوريا ومصر وتلك النواحي وأعطاه لقب «قيصر»، وكان جاليريوس عدواً لدوداً للمسيحيين.

وفي الـسنة الثامنة عشرة لمُلك دقلديانوس، بدأت خطة الإبادة للمسيحيين التي كان قـد أحـكـم لهـا الإعـداد طـوال هـذه الـسـنين، و بالتحديد في يوم ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣م خـرجـت الأوامـر مـن قصر نـيـقـومـيـديا بإبادة المسيحيين من على وجه الأرض، وأُعطي لجاليريوس، وكان أعظم محارب في عصره، أن يقوم بتنفيذ الخطة في الشرق.

و بدأت العاصفة بكاتدرائية نيقوميديا ذاتها، فهُدمت من أساسها وأُحرقت محتو ياتها ونُهبت ذخائرها، أمام عيني الإمبراطور وهو واقف على شرفة قصره، حتى لم يبقَ فيها حجر

على حجر.

وفي يوم ٢٤ فبراير سنة ٣٠٣م ارتفع المنشور على باب قصر الإمبراطور يحمل أمراً بهدم جميع الكنائس، وحرق جميع الأسفار، وتجريد الأساقفة وكل من هو في رتبة كنسية من كل الحقوق المدنية، أما عامة المسيحيين من الشعب فتُرفع عنهم حقوق الأحرار ويوضعوا في رتبة العبيد!...

غير أنه لم تُحرم الكنيسة في هذا اليوم من شهيد شجاع ردَّ رداً سريعاً على عظمة الإمبراطور، إذ تقدم إلى الباب على مرأى من الحراس ونزع المنشور ومزّقه وداسه برجليه. صدرت الأوامر في الحال بالمحاكمة الفورية وحرقه حياً. وهكذا بدا ذلك اليوم حزيناً، وخرج فجره ملفوفاً بسحابة دخان سوداء لجسد محروق، ما أن صعدت إلى السماء حتى تراكمت معاً وتجمعت على هيئة بقعة سوداء التصقت بقرص الشمس، مع بقع سوداء كثيرة تحكي للأجيال عن أحزان بني الإنسان...

وكان جاليريوس غير راضٍ عن منشور دقلديانوس، لأنه لم ينص صراحة على إعدام المسيحيين، بل اكتفى بحرق الأسفار وهدم الكنائس وسجن الرؤساء، ومن المعروف أن زوجة دقلديانوس وبناته كن مسيحيات، وكان دقلديانوس يرى في حرق الأسفار وسجن الرؤساء وسيلة فعالة للإنهاء على المسيحية ببطء. ولكن سرعان ما فلت زمام الإمبراطور بسبب شجاعة ومقاومة الكنائس علناً، فأصدر أمره بحرق المسيحيين أحياءً، رجالاً مع نساء، ورؤساء مع عامة الشعب، جماعات جماعات بلا تمييز.

وصعدت مرة أخرى سحب الدخان كثيفة عالية لتحجب نور الشمس عن قلب الإمبراطور، وتصنع طريقاً في السماء تعبر عليه هذه الأرواح نحو الأقداس العليا وهي تنشد نشيد الجلجثة.

الغرب أيضاً:

ولما بلغ مكسيميانوس إمبراطور الغرب ما صنعه دقلديانوس في الشرق، أصدر هو

الآخر أوامر مماثلة لإبادة المسيحيين مبتدءاً بإيطاليا ثم أفريقا.

وسرعان ما سرت بين المسيحيين في الشرق والغرب حماسة إيمانية عالية وعصيان لكل أوامر الإمبراطور، فواصلوا عبادتهم واجتماعاتهم وحملهم للأسفار واعترافاً علنياً بالإيمان بالمسيح ورفضاً بالغاً لعبادة الأوثان بشجاعة أذهلت الإمبراطور وأخرجته عن وعيه؛ فأصدر الأوامر المشددة بسجن كل رؤساء الكنائس. فامتلأت السجون حتى اكتظت بالأساقفة والكهنة والشمامسة، ولكن لم تتوقف حركة العصيان العلني ولا الحماس الإيماني ولا قيد شعرة، وكان نشيد الإيمان والإعتراف بالمسيح يُسمع في السجون وفي دور القضاء وأمام الحكام علانية!!

أنين الشهداء:

وتكاثرت الأصوات الحزينة المنبعثة من الأشلاء المبعثرة في ساحات الإستشهاد، وترددت أنـّات الشهداء في قلب الإمبراطور، وتكدست صور المذبوحين في ذاكرته. وقليلاً قليلاً لم يقوَ الجبار على احتمال الموقف، فخرَّ مريضاً دون أن يُعرف له مرض، حتى حُمل على محفَّة سنة ٣٠٤م. واعتلَّ عقله جداً وذبلت نفسه فيه، وسئمت روحه الحياة...

ولكن الشيطان انتهز آخر فرصة له، إذ استغل جاليريوس مرض الإمبراطور وأصدر باسمه منشوراً، و بدون علمه، بإنزال العقوبات الصارمة على المسيحيين الذين يقاومون إجراءات التفتيش أو المحاكمة، كما نص المنشور على إجبار الشعب بكل فئاته على التبخير للآلهة ـــ فكان الذين عُذِّبوا وماتوا بسبب هذا المنشور أكثر من كل ما سبقه. فكل ما يمكن أن يصنعه الشيطان صنعه على يدي جاليريوس.

ولكن لم تَدُمْ هذه الثورة الشيطانية، ولا استطاعت قوة الإمبراطور أن تحتمل أنين هذه الأرواح البريئة، فاعتزل دقلديانوس الحكم نهائياً تحت وطأة المرض الشديد سنة ٣٠٥م، وأُجبر مكسيميانوس في الغرب على الإستقالة هو أيضاً، و بذلك كان قد بلغ

٩

الجَزْرُ بالنسبة لإضطهاد الكنيسة أقصاه.

وفي سنة ٣٠٦م، بدأ المدُّ خفياً لصالح الكنيسة، وذلك بدخول قسطنطين معترك السياسة عوض أبيه قسطنطيوس، فأعلن نفسه قيصراً على بريطانيا. ولكن كان لا يزال أمام قسطنطين ست سنوات طويلة قبل أن يبلغ انتصاره الأخير ضد أعدائه فوق قنطرة ميلفيان تحت راية الصليب.

ظل جاليريوس في هذه السنوات الست يحاول جاهداً، بنفخ من الشيطان متواصل، لكي ينال من الكنيسة بأية صورة، فلم يفلح قط، بل بقدر ما كان يهدم كان الله يبني، وعوض الألوف الذين قُتلوا تنبهت أرواح ألوف الألوف من الشعب وصاروا أقوياءَ من ضعف!

وأخيراً كلَّت يد الظالم وخرَّ هو الآخر صريعاً تحت ثقل مرض عضال ظل يأكل جسمه كالنار، وأخيراً جداً أفاقت نفسه إفاقة الموت وأخذ يصرخ بصوت معذب و ينادي المسيحيين: «صلوا. صلوا لإلهكم ليرحمني!!» وأصدر وهو على سرير الموت «منشور تسامح» يعطي فيه للمسيحيين كل حقوقهم التي سلبها وتصريحاً لبناء كل كنائسهم التي تهدمت!!

اضطهاد مكسيمين:

ولكن لم تدُمْ فرحة المسيحيين في الشرق «بمنشور تسامح» جاليريوس، الذي أمضاه كلٌّ من قسطنطين وليسينيوس، إذ لم تكد تفرغ السجون ممن فيها من الأساقفة والكهنة والشمامسة، وتلبس الكنيسة زينتها، وتُقام الصلاة جهاراً، حتى تواردت الأخبار من عاصمة الشرق نيقوميديا أن مكسيمين عدو المسيحيين اغتصب الشرق، وأعلن نفسه إمبراطوراً على كل آسيا وسوريا ومصر خلفاً لجاليريوس، وأنه أجبر ليسينيوس على التنحي. و بدأ حكمه بيد من حديد مستخدماً طُرقاً جديدة من المكر والغش والإحتيال، فكان يستكتب الناس عرائظ وشكاوى ضد الأساقفة والكهنة والمسيحيين، و يفتعل

أزمات محلية في بعض الأماكن لإخراج المنشور تلو المنشور بالحبس والإضطهاد، واضعاً أمام عينيه إنجاح خطة الشيطان التي أخفق فيها دقلديانوس وفشل في تنفيذها جالير يوس بإبادة المسيحيين قليلاً قليلاً لإعادة السلطة الوثنية.

وفي خريف سنة ٣١١م خرج أول منشور بالتضييق على المسيحيين، وفي شتاء سنة ٣١١م صدر المنشور الثاني بإعادة سجن الذين كانوا في السجون من أساقفة وكهنة وشمامسة، حتى اكتظت السجون من جديد.

البابا بطرس خاتم الشهداء:

أما في الإسكندرية فبعدما صدر منشور جالير يوس بالسماح والإفراج، خرج القديس بطرس بابا الإسكندرية السابع عشر من أقبية سجن كامب شيزار، بعد أن ظل سجيناً فيه كل أيام إضطهاد دقلديانوس، وما أن أُفرج عن القديس حتى هبَّت المدينة بأسرها تستقبله بفرح وتهليل يفوق الوصف، ولكن لم يكد يستقر على كرسيه في كنيسة مار مرقس وحوله عدة أساقفة من نواحي مصر، حتى جاء المنشور المشؤوم وقبض على الجميع دفعة واحدة وزُجَّ بهم في عدة سجون.

وأخيراً جاء منشور سري بأخذ رأس القديس بطرس بحد السيف، وما أن علمت المدينة بذلك حتى قامت قومتها. ولكن أسرع القديس بطرس واتصل بالوالي سراً طالباً أن تؤخذ رأسه سراً حتى لا تُراقَ دماء الشعب. وفعلاً أكمل هذا البابا أمنيته بعيداً عن أعين الشعب، وركع بطرس وأحنى رأسه للسيف وأسلم الروح... وهو يصلي طالباً سلامة الكنيسة!!... متوسلاً لدى الرب بصراخ ودموع أن يكون آخر ضحية عن سلامتها، فسُمع له من أجل تقواه.

وتدحرجت رأس القديس بطرس على الأرض وامتزجت دماؤه بدماء باباه الأول مرقس الرسول، فارتوت الكنيسة التي زرعها مرقس الرسول وسقاها بدمه، ونمت الشجرة، بعد أن شربت المبكر والمؤخر. وكان ذلك في ٢٥ نوفمبر سنة ٣١١م والرب رأى

وسمع وكتب أمامه سفر تذكرة.

نجدة من الغرب:

ولكن كان أمام الكنيسة زمان قليل بعد حتى تهدأ العاصفة. فقد وردت أخبار تفيد أن أرمينيا البلد المسيحي الحرّ أعدت جيشاً لمقاتلة مكسيمين. وكان ذلك في خريف سنة ٣١٢م، فانزعج مكسيمين لعلمه بأن الغرب لن ينصره في هذه الحرب وعليه أن يخوض حرباً في جبهتين، وبينما هو يعد جيشه وإذا بوباء الطاعون يتفشّى بين جنوده مع ظهور مجاعة ونقص في التموينات، فانهدّت عزيمته وبدأ يتريث في محاربة أرمينيا.

وفي نفس الوقت كان قسطنطين يزحف بجيوشه ناحية روما لمحاربة مكسينتيوس، وقد تراءى له في حلم أنه إذا وضع الصليب على دروع جنوده كان النصر حليفه، وظهرت له علامة الصليب مكتوباً تحتها «بهذا تغلب». وكان المقصود بالطبع الغلبة الروحية وليس الغلبة القائمة على سفك الدماء.

ولكن حقق الله له أمنيته من أجل سلامة قلبه تجاه كنيسته، فبمجرد أن التحم جيشه بجيش مكسينتيوس عبر قنطرة ميلڤيان الشهيرة فوق نهر التّيْبر حتى تراجعت جيوش مكسينتيوس مدحورة، وسقط كثير من جنوده في نهر التيبر وغرقوا. وكانت هذه الموقعة في أكتوبر سنة ٣١٢م، وكأننا نحن مرة أخرى أمام موسى والعصى والبحر وفرعون وجنوده غرقى مذعورين.

تقدّم قسطنطين نحو روما، وعيّد هناك لإنتصاره. ثم تقدم إلى ميلان وتقابل هناك تقابلاً ودياً مع ليسينيوس في يناير سنة ٣١٣م، وتصاهر ليسينيوس مع قسطنطين إذ تزوج قسطنطيا أخته ــ وكان ودًّا سياسياً قائماً على الخداع ــ ولكن قسطنطين اشترط أن يكون إتفاقهما على أساس سلامي بالنسبة للكنيسة، فأجبره على إمضاء «منشور ميلان» السلامي الذي أعطى ونظّم كل حقوق الكنيسة تجاه الدولة.

منشور ميلان السلامي:

فلما بلغت مكسيمين أخبار تحالف قسطنطين وليسينيوس وزحف قسطنطين شرقاً، قرر مواجهتهما. فزحف بجيوشه، وكان أغلبهم من سوريا، واخترق آسيا الصغرى وحاصر المدن التابعة للإمبراطور ليسينيوس وعبر البسفور، ولكنه لم يقوَ على مواجهة جيوش ليسينيوس وقسطنطين فارتد إلى طرسوس بفلول جيشه المدحور، وتعقّبه ليسينيوس واحتل نيقوميديا، ودخل القصر الإمبراطوري. ومن هناك أصدر أول منشور له، وكان «منشور ميلان السلامي»، وذلك لكي يسترضي الشعوب المسيحية.

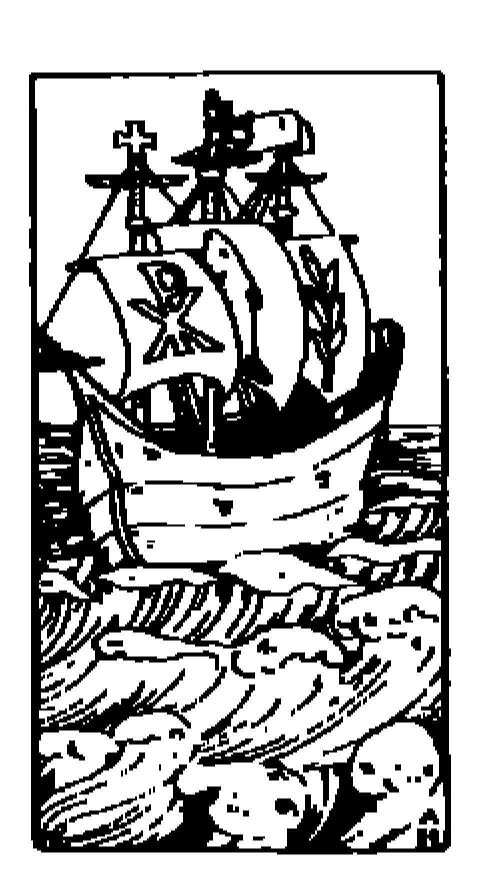
وهكذا يشاء الله أن من قصر نيقوميديا الذي خرج منه أعظم وأخطر منشور لإضطهاد المسيحية في العالم لإبادتها على يد دقلديانوس، يصدر منشور ميلان السلامي لكل الكنيسة في العالم!

أنين الشهداء أيضاً:

ولكن من أمور الله العجيبة أن يفيق مكسيمين وهو في ذُلّة انكساره ومرضه، يفيق إفاقته الأخيرة و يندم ندماً مريعاً على ما اقترفته يداه، و يُصدر في آخر لحظة «منشوراً سلامياً» يضارع منشور ميلان، يعطي فيه الكنيسة كل حقوقها المسلوبة و يأمر ببناء الكنائس التي تهدمت، مدعياً أنه لم يكن يقصد قط أن يسيء إلى الكنيسة، و يلوم قناصله وولاته المحليين لأنهم أساءوا فهم أوامره.

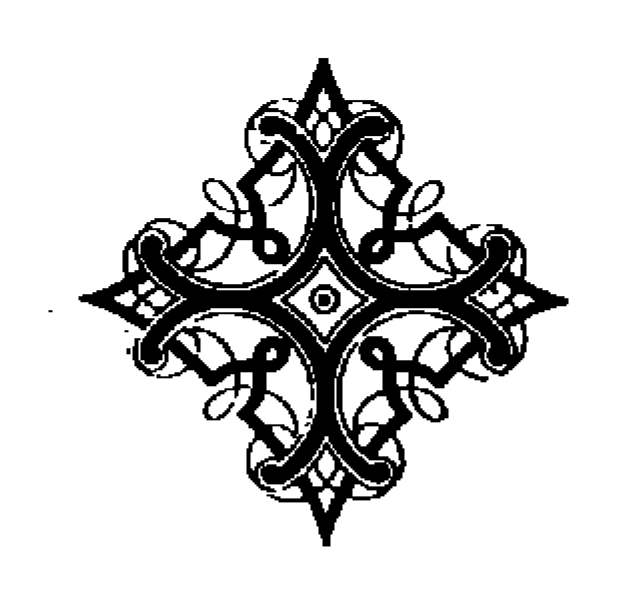
ولكن وحتى بعد هذا لم يحتمل ضميره لثقل الإحساس بالذنب ولم يستطع أن يواجه ماضيه المخزي بسبب اضطهاده للأبرياء، وظل يلاحقه أنين قتلاه حتى وقع صريعاً لمرض عقلي اعتراه، فهدّ كيانه حتى لم يعد إلا شبحاً. وفي مرارة حزنه اعترف علناً أنه رأى الرب في رؤيا وحوله الشهداء الذين ماتوا وهم في مجلس حكم يدينون كل أعماله السالفة، أما هو فكان يصرخ للرب طالباً الرحمة، وكان يتعذب بشدة كأنه فوق آلة تعذيب... وأخيراً مات في خريف سنة ٣١٣م.

ودخلت الكنيسة في عصرها السلامي على أساس الإحترام المتبادل مع الدولة. بعد أن تحمل الشهداء والمعترفون عبء ضريبة الدم والتعذيب لتعيش كل الأجيال الصاعدة في ملء بركة الشهداء.



(٥)





سحابة من الشهود

الرسالة إلى العبرانيين — الأصحاح الحادي عشر

«[١] وأما الإيمان فهو الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى. [٢] فإنه في هذه شُهد للقدماء. [٣] بالإيمان نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرى مما هو ظاهر. [٤] بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين. فبه شُهد له أنه بارٌّ. إذ شهد الله لقرابينه. و به وإن مات يتكلم بعدُ. [٥] بالإيمان نُقل أخنوخ لكي لا يرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله. إذ قبل نقله شُهد له بأنه قد أرضى الله. [٦] ولكن بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه. [٧] بالإيمان نوح لما أوحي إليه عن أمور لم تُرَ بعدُ خاف فبنى فُلكاً لخلاص بيته، فبه دان العالم وصار وارثاً للبر الذي حسب الإيمان. [٨] بالإيمان إبراهيم لما دُعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي. [٩] بالإيمان تغرَّب في أرض الموعد كأنها غريبة ساكناً في خيام مع إسحق و يعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه. [١٠] لأنه كان ينتظر المدينة التي لها الأساسات، التي صانعها و بارئها الله. [١١] بالإيمان سارة نفسها أيضاً أخذت قدرة على إنشاء نسل و بعد وقت السن ولدت إذ حسِبت الذي وعد صادقاً. [١٢] لذلك وُلد أيضاً من واحدٍ وذلك من مُمات مثل نجوم السماء في الكثرة وكالرمل الذي على شاطىء البحر الذي لا يُعدُّ.

[١٣] في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيّوْها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض. [١٤] فإن الذين يقولون مثل هذا يُظهرون أنهم يطلبون وطناً. [١٥] فلو ذكروا ذلك الذي خرجوا منه لكانت لهم فرصة للرجوع. [١٦] ولكن الآن يبتغون وطناً أفضل أي سماوياً، لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينةً.

[١٧] بالإيمان قدَّم إبراهيم إسحق وهو مجرَّب، قدَّم الذي قَبِلَ المواعيد، وحيده، [١٨] الذي قيل له إنه بإسحق يُدعى لك نسل. [١٩] إذ حسِبَ أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً، الذين منهم أخذه

أيضاً في مثال. ٢٠بالإيمان إسحق بارك يعقوب وعيسو من جهة أمور عتيدة. ٢١بالإيمان يعقوب عند
موته بارك كل واحد من ابنَي يوسف وسجد على رأس عصاه. ٢٢بالإيمان يوسف عند موته ذكر خروج
بني إسرائيل وأوصى من جهة عظامه. ٢٣بالإيمان موسى بعد ما وُلد أخفاه أبواه ثلاثة أشهر لأنهما رأيا
الصبي جميلاً ولم يخشيا أمر الملك. ٢٤بالإيمان موسى لما كبر أبَى أن يُدعى ابنَ ابنةِ فرعون، ٢٥مفضِّلاً
بالأحرى أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية. ٢٦حاسباً عار المسيح غِنىً أعظم
من خزائن مصر لأنه كان ينظر إلى المجازاة. ٢٧بالإيمان ترك مصر غير خائف من غضب الملك لأنه
تشدد كأنه يرى مَنْ لا يُرى. ٢٨بالإيمان صنع الفصح ورشَّ الدم لئلا يمسهم الذي أهلك الأبكار.
٢٩بالإيمان اجتازوا في البحر الأحمر كما في اليابسة، الأمر الذي لما شرع فيه المصريون غرقوا.
٣٠بالإيمان سقطت أسوار أريحا بعد ما طيفَ حولها سبعة أيام. ٣١بالإيمان راحاب الزانية لم تهلك مع
العصاة إذ قبلت الجاسوسين بسلام.

٣٢وماذا أقول أيضاً، لأنه يعوزني الوقت إن أخبرت عن جدعون و باراق وشمشون و يفْتاح وداود
وصموئيل والأنبياء. ٣٣الذين بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا برًّا، نالوا مواعيد، سدُّوا أفواه أسود،
٣٤أطفأوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقوَّوا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش
غرباء. ٣٥أخذت نساءٌ أمواتهنَّ بقيامةٍ. وآخرون عُذِّبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل.
٣٦وآخرون تجربوا في هُزءٍ وجَلدٍ ثم في قيود أيضاً وحبس، ٣٧رُجموا نُشروا جُربوا ماتوا قتلاً بالسيف،
طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مذلين، ٣٨وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم، تائهين
في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض، ٣٩فهؤلاء كلهم مشهوداً لهم بالإيمان لم ينالوا الموعد، ٤٠إذ
سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكمَلوا بدوننا».

المرجو من القارىء أن يقرأ أولاً الأصحاح الحادي عشر من الرسالة إلى العبرانيين و يتمشى مع التصوير حتى يقتني هذه الأيقونة الجميلة على لوحة ذهنه النقي.

في مدينة درِسْدِنْ بألمانيا لوحة (أيقونة) من أبدع اللوحات الدينية في العالم وتسمى: «سيدة سان سيستو Madonna de san sisto» ، وفيها يظهر الطفل يسوع على ذراعي أمه العذراء القديسة مريم، وتحيط بها سحابة هائلة تملأ فراغ الصورة. وقد ظلت هذه السحابة لا تسترعي انتباه أحد بالمرة عدة مئات من السنين حتى حانت التفاتة من أحد الفنانين ذوي البصيرة النافذة، فرأى بعد تدقيق شديد أن السحابة لم تكن مجرد نقط ضوئية، بل هي في الحقيقة عشرات الألوف من وجوه دقيقة لملائكة وقديسين. وفي الحال قام المسئولون برفع ذرات التراب المتراكمة على الصورة فظهرت الوجوه واضحة.

□□□

و بولس الرسول في سفر العبرانيين يحكي لنا في الأصحاح الحادي عشر قصة اكتشافه لأيقونة سمائية على نفس المستوى، عبارة عن سحابة عظيمة من وجوه معروفة تطل علينا من السماء وتحيط بنا من كل جهة، في مجموعها العادي كانت تُرى كسحابة منيرة فعلاً، ولكن لما دقق فيها بولس الرسول وكان ذا بصيرة نافذة جداً، تعرَّف من وراء ذرات النور فيها على وجوه كانت غير واضحة عندنا. فلما كشف عن مجد الإيمان فيها ظهرت متلألئة تأخذ بالقلوب. وقد قدمها لنا بولس الرسول على هيئة لوحة فنية جميلة غاية في الإبداع يمكن اقتناؤها وتثبيتها في القلب بسهولة.

ونحن بدورنا ننقل للقارىء الرائي بعض الملامح الأخَّاذة لشخصيات هذه الأيقونة الفريدة.

٥

عب ١١ : ٤

+ ففي أعلى الأيقونة، في وسط السحابة، يكتشف القديس بولس الرسول شخصية «**هابيل**» الصدّيق، ووجهه في غاية البراءة يقطر منه الدم لأن أخاه قتله لما حسده وحقد عليه، والعجيب أنه بالتدقيق الشديد والملاحظة وُجد أن قطرات دمه لا تزال تتساقط ببطء شديد على الأرض، وحينما تلمس التراب تتكلم من تلقاء ذاتها بتسبحة خافتة لا تتوقف قط، تطلب الرحمة والحياة للأخ القاتل. وتحت وجه هابيل تُرى يداه وهي حاملة ذبيحته التي فاز بواسطتها بالمركز الأول في سباق الإيمان في كل جيله، لأنها كانت أعز ما ملك في حياته!

عب ١١ : ٥

+ وعلى الجانب الأيمن من أسفل، يَرى بولس الرسول وجهَ شيخٍ نضيراً جداً، أنضر من الشباب، تُشعُّ الطيبة من عينيه، وهو «**أخنوخ**»، لا يراه كروح كبقية أرواح الأبرار المكمَّلة في المجد بل بجسده حياً بلحمه وعظامه. وقد أخذ هذا الوجود الجسدي في صميم سماء الأرواح كامتياز له عجيب، جزاء حياة جسدية طاهرة قيل عنها أنها أرضت الله، لأنه اختبر السير مع الله فلم تنقطع هذه المسيرة حتى بالموت، فكان أخنوخ أول ناسك متصوف في العالم. وعاش بإيمان بسيط غاية البساطة ارتفع به إلى مستوى التصديق أنه لن يرى الموت، فتخطّاه! ... أما لماذا لم يرَ أخنوخ الموت فلأنه كان يرى الله ولم تنقطع رؤياه من قلبه لحظة واحدة!!

عب ١١ : ٧

+ وفي الجانب الآخر لهابيل من أسفل، رأى بولس الرسول وجهاً تحيط به المياه من كل جهة بمنظر طوفان جارف، هو «**نوح**» البار، الذي بإيمانه الخائف المرتعد فاز ببرِّ الله، وكأن إيمانه ومخافته لله قادران أن يوازنا خطية الأرض كلها في ذلك الزمان، فنجت معه البشرية وكل الخليقة من الإبادة الكاملة وذلك في فُلكه الصغير. وعلى رأس نوح ظهرت هالة فريدة من نوعها اسمها **هالة الخوف الإيماني**، وظهرت مقسمة ومجزأة بشبه

مـقـياس كمسطرة يُقاس عليها مخافة كل إنسان، لدينونة كل الذين لا يصدقون تحذيرات الله.

عب ١١: ٨ــ١٩

+ ومـن هـؤلاء الـثلاثة: «هابيل وأخنوخ ونوح» تنبعث أشعة الإيمان وتتجمع معاً، كـميـرات يـنـصـبُّ على رأس شـخـصـية مهيبة جداً احتلت المركز الأوسط في السحابة العظيمة: «إبراهيم». ظهرت خلفه مدينة «أور» كوطن مهجور تركه بالإيمان ولم يعد له قـط، فـاسـتـأهـل أن يـكـون مـواطناً سماو ياً، وظهرت في يده اليمنى سكين الطاعة، على شـكـل صـلـيب، مغروسة في جسم حمل وديع للغاية قائم كأنه مذبوح ولكنه حي، يداعبه صبي جميـل الـصورة بطيء الحركة لأنه ابن شيخوخته، يأخذ من دم الحمل و يدهن حول رقـبـة نـفـسـه، فظهر في الصورة كأنه ذُبح مع أنه لم تمسسه السكين... وتحت وجه إبراهيم ظـهـرت خيمة ممزقة من مشقَّة الترحال وغُر بة العمر الطو يل، بابها مفتوح مكتوب عليه: **«الـدرب المـوصـل للـمـديـنـة التي لها الأساسات»، «هذا مسكن الذين يطلبون الـوطن الأفـضل أي السمائي»**. وعلى الباب وقف ثلا ثة رجال حاملين وعد الدهور، وخلفهم مائدة عليها صورة واحد منهم مجروح جرحاً مميتاً، ولكنه كان متهللاً مسروراً لأنه هـو الذي جرح نفسه، وفي أيديهم دَرَجٌ مكتوبٌ عليه كتابة بكل اللغات، مثبتاً على رأس الصبي الصغير إسحٰق هذا نَصُّها: «بذاتي أقسمتُ، يقول الرب، أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك بركة و يتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي.» (راجع تك ٢٢: ١٦ــ١٨)

وقد بـدا جـسـم إبراهيم متعتقاً جداً في الأيام، كميت، ولكن وجهه كان في نضارة شـاب صغير، لأن موته انقلب في داخله إلى حياة، لأنه آمن أن الله قادر أن يحيي مَنْ فَقَدَ الحـيـاة و يـقيم مـن الأمـوات، فـاستُعلنت فيه القيامة قبل أن تُسْتَعلن. وكان ينبعث من قـلـب إبـراهيم خـيـط ذهبي مـضـيء ينحدر ببطء ليدور حول الأيقونة كلها ينساب من يد لـيـد، لأن إيمـان إبـراهيم من شدته صار ميراثاً على المشاع. وخلف وجه إبراهيم ظهر وجه

لإمرأة عجوز شاخت في الأيام، تضحك وتشير بيديها على آبن في حضنها، وعلى رأسها آية مكتوبة لمزمور: «والعاقر بالإيمان تصير أُمّ أولادٍ فَرِحَة.» (راجع مز١١٣: ٩)

عب ١١: ٢١

+ وعلى جانبي الخيمة الموروثة ظهر «**إسحق و يعقوب**» يتعانقان، و يبارك الأولُ الآخرَ، فظهرت البركة في الصورة على هيئة ندى السماء كقطرات من نور تخرج بلا انقطاع من فم إسحق، وتستقر على رأس يعقوب، فتصير كنهر منساب لا ينقطع فيضانه، وإذ يلامس رأسه و يسيل على صدره يتجمع صفوفاً صفوفاً ليصير شعباً مباركاً، كالرمل لا يُعدُّ من الكثرة، كشاطىء مترامي الأطراف أو كالنجوم المتجمعة في المجرّات التي تملأ وجه السماء.

عب ١١: ٢٢

+ ثم ظهرت مصر في الأيقونة بتماثيلها المكثفة، وظهر النيل، ومدينة أون، و **يوسف** بوجهه الجميل، جالساً على كرسي عالٍ وفي يده خاتم فرعون وقلادةٌ ملكية حول عنقه، وتحت رجليه عظامه وقد لفَّها باعتناء الإيمان، وكأنها محنطة في تابوت ومكتوب عليها بالإيمان: «تُعاد إلى أرض الميعاد».

عب ١١: ٢٣ــ٢٩

+ وبجوار التابوت تماماً ظهر وجه «**موسى**» مهيباً ومضيئاً جداً يبهر العين، لأن نور السماء كان ينعكس منه، جماله لم ترَ مصر له نظيراً، وكأنه وُلد ليكون ملكاً ولكن ليس على أوثان، وظهرت بنت فرعون تخدمه. وجماله تحوَّل مع الأيام وتحت شمس مصر ونيلها إلى حكمة أذهلت فرعون، الذي ظهر في الصورة وكأنه يدعوه ليكون معه كيوسف على كرسيه لكنه أبى، إذ لم تقنع موسى كل كنوز مصر، ولا حكمتها أشبعت رؤيته لما وراء الزمان والدهور، فظهر في الصورة وهو يعطي فرعون ظهره وقد انحنى حاملاً شعبه على كتفيه ممسكاً بخروف له سبعة قرون وأمامه براري سيناء وشوامخ جبالها، يفصله عنها

بحرٌ، بـه تـنـانين عـظـام مخيفة، مفلوقٌ نصفين، وشعب مشدود الوسط يسير بهتاف عظيم ورقص في وسط المياه وكأنها سور عن يمين و يسار!!

و بـدت خـيـمـة الشهادة عن بُعدٍ، وموسى واقف يسترحم وجه الله عن شعب قاسي الرقبة يرش الدم على كل شيء، الكتاب نفسه والمسكن وجميع آنية الخدمة، فكانت كل نـقطة دم تسقط على كتاب أو آنية أو أي شيء تنغرس في الحال وتصير على شكل صليب مضـيء، ويخرج منهـا صوت كـصـوت قـيـثـارة مع لحن سمائي للتقديس لا يكفُّ عن التسبيح ليلَ نهارٍ.

عب ١١: ٣٠ــ ٣١

+ وفي مـكـان بارز ظهرت مدينة أريحا، وأسوارها الشامخة مهدَّمة كأنقاض. وظهرت الأبواق في أيدي الكهنة مصوَّبة نحوها كمدافع بعيدة المدى، كل بوق أمامه سور مهدوم، والـعدد **٧** مرفوع فوق الأنقاض، وكأنه يحمل سر النصرة على معاقل الشر بطاعة الإيمان. وظهر وإذا جزءٌ صغير من السور بقي واقفاً يتحدى كل هذا الخراب، وفي أعلاه كوة وخيط قـرمـزي وغرفة صغيرة ظلت باقية تشهد لإيمان آمرأة نسيت خطيتها ودعت باسم الله الحي وترجَّت الخلاص فأتاها.

+ ويجـوار أسـوار أريحـا المـهـدمـة ظـهـر من الجهة الأخرى منظر حز ين لوجه تبدو عليه الـصـرامـة مع مسحة حزن، هو «**جدعون**»، ظهر وهو منعكف يضرب حزمة من سنابل الـقـمـح يـشتهي أن يهرب بها من أعين المحتلين، ولكن وقف تجاهه ملاك يراقب حركاته بـعـطـف، ثم فجأة بدأ الحديث وسرت بين الإثنين مناقشة حادة عن لماذا يترك الله شعبه للـمذلة، ثم كيف بعد ذلك يدعو الله العييَّ والكليل والذليَّ ليملك و يترأس ويخلِّص ويهزم جـيـوش غـر بـاء؟ أليس الجبروت والخلاص للعظماء ذوي الأسماء؟ ولكن فجأة ظهرت ذراع الرب بين الإثنين، فسكت جدعون واقتنع وعلم من أين تأتي النصرة والنجاة.

وعـن يمين جدعون وعن شماله ظهرت جَزَّتان من الصوف، إحداهما مبلولة والأخرى

جافة بالرغم من أنها تعوم في الماء، ورغيف شعير كحجر الرحى العظيمة التي يديرها ثور، يتدحرج بيد ملاك، فيطحن خيام الأعداء كطحن حفنة غَلّة، وتحت رِجْل جدعون ظهرت شعوب مهزومة، وعن يمينه ثلثمائة رجل أَبَوْا أن يلقوا السلاح ليشربوا من النهر، فجَثَوْا وشربوا الماء وَلْغاً كما تَلَغُ الكلاب بلسانها الماء، وأيديهم لا تفارق سلاحهم من كثرة أمانتهم، أمور يصنعها الإيمان فترضي وجه الله.

عب ١١ : ٣٢

+ وعن اليمين ظهر وجه بلحية مسترسلة لقاض وقور، يرتجف وهو جالس على جبل تابور. هو «**باراق**». في يده سيف يتلفت طالباً معيناً له، وتحت رجليه شعب مهزوم، ولكن خلف وجه باراق ظهر وجه آخر أكثر صلابة وأكثر بأساً مع أنه لإمرأة، «**دبورة**»، كاد يلغي وجه باراق لولا اتضاع هذه النبية وحياؤها، لأنها أهدت جبروتها لرجل، ونُصْرتُها نَسَبَتْها لآخر. ظهرت وفي يدها دَرَجٌ مكتوب، هو أنشودة تلقنتها بالروح، تحيي فيها القدير وترفع بها رأس المرأة: «أنا أنا للرب أترنم... استيقظي استيقظي يا دبورة وتكلمي بنشيد،... خُذِلَ الحكام في إسرائيل، خُذلوا حتى قمت أنا دبورة. قمت أمًّا في إسرائيل... الرب سلَّطني على الجبابرة... قم يا باراق وٱسْبِ سَبْيَك يا ٱبن أبينوعم.» (راجع قض ١٥)

عب ١١ : ٣٢

+ وعن يمين باراق ظهر **شمشون**، وروح الله يحيط به، وجهه كوجه عشرة رجال معاً رسمته أصابع العلي ليظهر مجده فيه، وشعره على كتفيه كضفائر من فولاذ مضفورة بيد العزيز الجبار. بركة آبائه تحولت فيه إلى قوة، وملاك الله كان يحرك ساعديه، من تحته ظهرت غنائمه، شيء لا يُصدَّق أنه من قوة بشرية، فوق ما يطيقه العقل. بقبضته أمسك بأسد من فكيه ودعا باسم الله ثم مزعه إلى نصفين، وبحيلته استدرج من أحيل حيوان الأرض ثلثمائة ثعلب وربطها معاً، وبيديه لما حل عليه روح الرب فتك بحبال من الكتان أغلظ من متن الرجل، وبفك حمار طري صرع ألف جبار من أعدائه، وعلى كتفه

حمل مصراعي باب مدينة غزة والقائمتين معاً وصعد بها حتى إلى رأس الجبل، و بيمينه وشماله جذب عمودي رخام بيت داجون وعليه ثلاثة آلاف نفس فأسقطها مثل عمودي قش، عندما طلب، بإيمان، النقمة من الله لأعدائه. فأتته القوة وأسقط البيت على من فيه.

+ وعن يمين شمشون ظهر **«يفتاح»** وروح الرب عليه، مطرود الأمة ذليل الشعب، في ذُلّه دعاه الله فاستجاب، فصار سهماً مَبْرِيًّا في يد القدير. قهر ممالك لما دعا باسم الرب واعتمد متوكلاً عليه.

+ وفي وسط الأيقونة من أسفل، تجاه إبراهيم، ظهر وجه مضيء أشقر بحلاوة وعيناه كعين حمامة، شعره ممسوح بزيت الإبتهاج، وعليه آثار أصابع صموئيل، مسترسل على كتفيه كأوتار قيثارة مشدودة، وتحيط بوجهه هالة من أنغام متداخلة معاً كصوت مياه كثيرة تطرب لها السماء، ويخر أمامها الجن مصعوقين، من هذه الأنغام ما هو حزين يحدر النفس من كبريائها حتى يلصقها بالتراب، ومنها الشجي البهيج الذي يركب بالنفس جناحي حمامة و يطير بها مع الصبح إلى أعماق البحار، **«داود»**، الذي بجبروته أخضع أمماً وشعوباً، و بإيمانه بنى لله بيتاً ومملكة، و بدموعه أسر قلب الله، و بألحانه أسس عبادة وكنيسة. ولكن خلف وجه داود يظهر ملتصقاً به وممتداً منه بيت سمائي شبه خيمة قائمة، وكرسي عالٍ، ووجه يلمع كالشمس، وصوت كصوت الله ينطق بقَسَمٍ لا يهدأ ولا يندم: «أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق.» (راجع مز ١١٠: ٤)

+ وعن يمين داود ظهرت شخصية ذات وقار كثير **«صموئيل»** عظيم الأنبياء، متسربلاً بجبة عليها بقع غائرة تبدو كالنقش، أصلها دموع أمه التي كانت تذرفها أثناء ما كانت تنسجها بيديها، فالتصقت الدموع بالنسيج مع آثار أصابعها وصلواتها، فبدت الجبة وكأنها نشيد السنين ولحن أمٍّ أهدت الله أعزَّ ما عندها. وفي يدي صموئيل ظهر دَرَجٌ مفرود، في أعلاه صورة عذراء حامل بدت وكأنها مدينة داخلها الله، ونسمع الجنين في

بطنها ينطق بصوت خافت يشق عنان السماء: «هوذا قد سكن الله مع الناس»!

وفي طرف الدرج المفرود صورة أخرى لوجه ملكي يسلب اللب ظهر متألماً حزيناً جداً لا يمكن أن يوجد حزن قط مثل حزنه، تحته معصرة يدوسها وحده، والدم يقطر منه، وأمامه زجاجة خل وكيس مرارة ومسامير وكلمة مكتوبة: «هذا هو الثمن لفرح البشرية»...

+ ومن تحت هذه الصورة الواضحة بدت صفوف أخرى من وجوه باهتة، ليست هي باهتة من ذاتها ولكن عين الرائي كلَّت عن تحقيقها، صور لأنبياء كثيرين بلا عدد.

عب ١١: ٣٣

+ مع صور لممالك وجبابرة مقهورين تحت وطأة كلمة نبي نطقها بإيمان، أو حتى تحت وطأة حصاة ملساء انطلقت من مقلاع صبي نادى باسم الله، وفوق كل مملكة أو جبار مقهور رُسم كأس خطاياهم، وقد امتلأ، فأخذ يفيض من تلقاء ذاته حُمَماً ممزوجة بغضب الله.

+ وتحتها رَسْمُ صفوف صفوف لرجال لابسين ثياباً بيضاءَ نقيةً تلمع كالنور، وفي أيديهم شِبَعُ سرورٍ وكل مشتهيات الأبرار مكتوب عليها: «مواعيد الله الصادقة».

+ وأسفل هذا ظهرت صور مفزعة لأُسود شرسة جائعة، بعضها محصور في جب وبعضها طليق. وبجوارها فتيان وشباب غضٌّ يتمشى بينها و يداعبها، وترى أفواهها مكمومة بكمامة من فولاذ فلا تقوى الأسود على تحريك فكِّها. ولكن بشيء من التدقيق تظهر الكمامات أنها ليست أكثر من أيدي هؤلاء الفتيان وقد وضعوها على أنيابها بهيئة صليب.

عب ١١: ٣٤

+ ومن تحت هذا ظهر منظر مفزع لألسنة لهيب نار كانت عتيدة أن تأكل بيوتاً ومدناً

برمّتها، ولكنها أُخمدت بكلمة الإيمان وتراجعت باسم الله واندفنت في التراب فجأة، وظهرت فوقها سُحُب من دخان تجمعت فرسمت آية لمزمور: «صوت الرب يطفيء لهيب النار.» (راجع مز٢٩: ٧)

+ ثم ظهر تحتها صفوف أخرى لجماعات جماعات يهتفون نشيد الغلبة والخلاص لأنهم جربوا الإيمان فنجوا، وتحت أرجلهم وُجدت سيوف مهزومة مرصوصة فوق أيادي وجثث أصحابها.

عب ١١: ٣٥

+ وتحت هؤلاء منظر عجيب جداً عبارة عن صفوف من نساء لابسات السواد يُوَلْوِلْنَ، وعلى أكتافهن توابيت أمواتهن الذين ماتوا في حروب الرب، ولكن ظهرت من التوابيت رؤوس الموتى وهي فَرِحة متهللة تغني، فكانت النسوة يَسِرْنَ وهُنَّ يُنشدن نشيد الجنازات، والأموات على ظهورهن ينشدون نشيد القيامة من الأموات.

+ وظهر أسفل ذلك منظر آخر يحير العقول، ساحةٌ وأُسود ونمور وجلادون وآلات تعذيب مفزعة، وجماعة تُساق نحو الساحة لتعذيبهم وقتلهم، أما هم فكانوا في نشوة وفرح وطرب يرتلون، بينما عِصي الجلادين تنهال على ظهورهم ورؤوسهم وهم لا يكفّون عن الترتيل. وفجأة طلب منهم الحاكم أن يقولوا كلمة واحدة بأفواههم فيُعفى عنهم، أما هم فنظروا إلى بعضهم البعض وضحكوا واستمروا يرتلون و يسيرون حتى صاروا وسط الساحة وماتوا جميعاً، ولم يقبلوا النجاة لأنهم آمنوا بقيامة أفضل.

عب ١١: ٣٦

+ وتحت هذا منظر آخر لآلات تعذيب مكثَّفة بلا حصر، ووجوه ملطخة بالدم، وأجسام مُعرَّاة ممزقة، وعظام مرضوضة، وأعضاء مقطَّعة كلها تنطق بتعذيب رهيب. والعجيب أن فوق هذه الأكوام من الجثث والأسلحة ظهر أصحابها أنفسهم قائمين أحياءً أصحاءً ينشدون نشيد نصرة الإيمان: «أين غلبتكَ يا موتُ. أين شوكتكِ يا هاوية»

(١ كو١٥: ٥٥). ولم يظهر في كل أجسادهم النورانية أي أثر لما عانوه من عذابات، سوى خطوط مضيئة تشعُّ من مواضع التعذيب تنبعث منها قوة شافية محيية!!

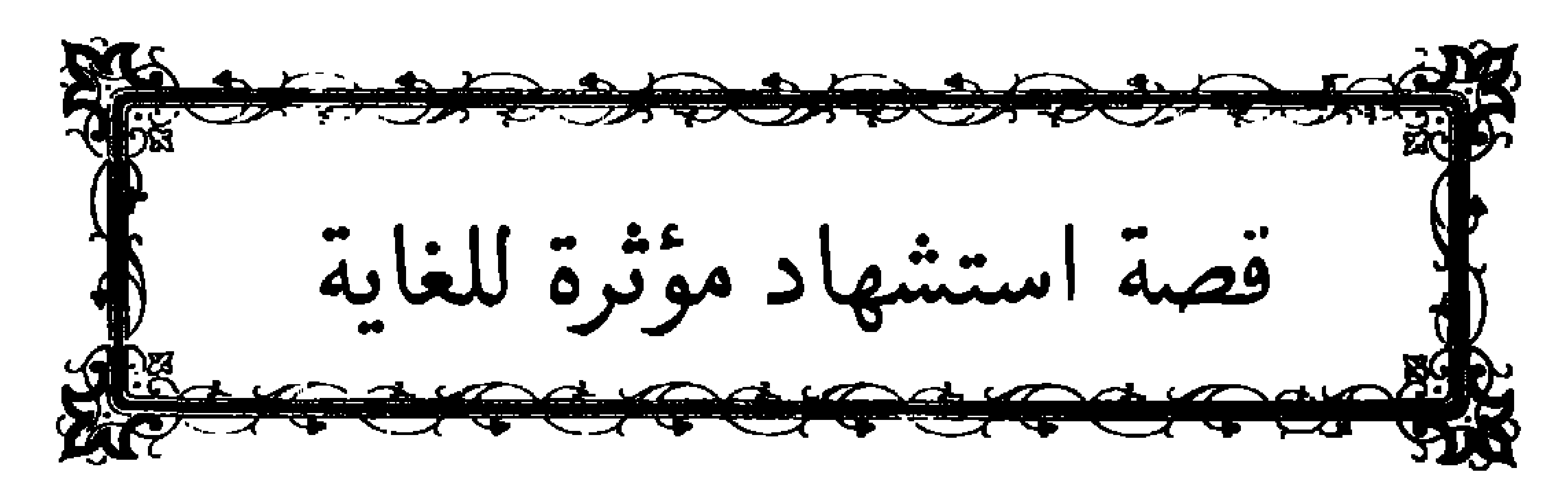
عب ١١: ٣٧ـ ٣٩

+ وتحت هذا ظهرت صفوف أخرى من جماعات مسكينة بثياب رثة وأجساد هزيلة شاحبة جداً يحملون كؤوساً ملآنة مرارة، و بعضهم يحمل زقاقاً ملآنة دموعاً وآية مكتوبة فوق رؤوسهم تحكي عن زمان قضوه في الحرمان والظلم والفقر وقسوة الإنسان، ليست لهم راحة ولا إقامة. وكانوا يغمسون أيديهم في زقاقهم و ينثرون دموعهم على الأرض، فكانت أينما تقع، تنبت ببطء، وتُخرج رهباناً ومتوحدين وسواحاً وأديرة وصوامعَ ومساكينَ مجهولين، فكان البِشْر يملأ وجوههم وتتحول مرارتهم إلى إبتهاج وفرح أبدي. وظهر تحت أرجلهم منظر براري مقفرة وجبال موحشة ومغاير مظلمة مخيفة وشقوق ضيقة اختاروها مكاناً لسكناهم، فأحبوها، وكانت لهم أفضل من الجنات والفراديس، ظلت على مدى الدهور تُسمع منها ألحان منبعثة من وسط الصخور مع صلوات وصوت دفوف ورائحة بخور، لأن صلوات وتسابيح المساكين تخلد كما تخلد أرواحهم.

عب ١١: ٤٠

+ وفي نهاية الأيقونة من أسفل ظهرت وجوه حديثة معروفة وأمامها طريق جهاد منصوب وسفر الحياة مفتوح وصوت يستحثهم: أن «قَرُبَ الزمانُ»، و بأيديهم أمسكوا بالخيط الذهبي المنير الواصل بأعلى الأيقونة الذي لم ينقطع خلال مئات السنين والأجيال، والواصل سراً من يد ليد. وقد أُعطوا ــ باستثناء ــ مزيداً من الوقت ليحملوا بسرعة كأس آلام الآباء، قدامى وجدداً، و يعلنوا صدق مواعيد الله الأولى والأخيرة لشهود إيمان لتكميل القديسين وإيمان يسوع!

(٦)



قصة استشهاد مؤثرة للغاية

شهيدتان من القيروان ... پر پتوا وفيليستاس ...
أُمٌّ مُرضِعَة تسلِّم رضيعها وتذهب لتستشهد ...
وحاملٌ تضع في اليوم السابق لاستشهادها ! ...

* * *



حوادث هذا الإستشهاد الرائع مسرحها مدينة قرطاچنة بشمال أفريقا، سنة ٢٠٣م. في عهد «سبتيموس ساو يرس».

القصة تكتبها پرپتوا الشهيدة بخط يدها، ووصْفُ الإستشهاد يكمله مدرسها الخصوصي؛ وبقية القصة يرجِّح أن ترتليان هو الذي اختتمها. وقد وُجدت هذه المقدمة في بداية القصة:

[إن كانت أمثلة الإيمان هي بقصد الشهادة لنعمة الله، ولبناء الناس، حتى بقراءتها يحيا الماضي ليتمجد الله و يتشدد المؤمنون، فلماذا لا نرى أمثلة جديدة نظير هذه حتى يستمر تمجيد الله وتشديد المؤمنين؟ لأن هذه الأمثلة التي نرويها ضرورية للأجيال الصاعدة، ولكن ستأتي أيام يُنظر إليها أنها أحداث عتيقة، تحيطها هالة من الوقار تحجز الناس عن الإقتداء بها.

ولكن ليت الذين ينظرون إلى قوة الروح القدس كأنها مرتبطة بالأزمنة والأوقات والمواسم يتذكرون قول الوحي: إنه في أواخر الأيام ينبغي أن يترقبوا أعمال الروح بأكثر غزارة: «لأنه في الأيام الأخيرة يقول الرب سأسكب من روحي على كل بشر».

إذن، فنحن نتطلع بالحري إلى الجديد من قوات الروح القدس بكل وقار، عالمين حسب الوعد أنها لتجهيز وإعداد الكنيسة التي خصَّها الروح بالعطايا، لهذا نحن نقدم هذه القصة لتُعرف وتُشتهر في كل الأقطار، ليتمجد الله (الكاتب هنا يعيش في حوالي سنة ٢٠٣ ميلادية، و يعتبر أن حوادث الرسل هي القديمة، أما حوادث قصة استشهاد پرپتوا سنة ٢٠٣ فهي حديثة بالنسبة لجيله، لذلك فهو

يقدمها لجيله كأنها آخر شهادة جديدة).

وبهذه القصة لا يعود ذو و الإيمان الضعيف أو اليائسون يتوهمون أن أعمال النعمة الفائقة سواء كانت بالإستشهاد أو بالإستعلان هي من أعمال الماضي فقط ، لأن الله سيظل إلى الأبد يتمم ما وعد به ، أما عمله فيكون دائماً لغير المؤمنين شهادة وللمؤمنين نعمة فإن « الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا... هذا نخبركم به » أيها الإخوة والأولاد ، حتى تكون لكم أنتم أيضاً الذين شاهدتم هذه الأمور عينها ذكرى دائمة لتمجيد السيد الرب ، أما أنتم الذين تسمعونها الآن بخبر الأذن فقط فيكون لكم بها « شركة » مع هؤلاء الشهداء القديسين وشركة بواسطتهم أيضاً مع الرب يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة إلى الأبد آمين].

□□□



بداية القصة

تم القبض على جماعة من الموعوظين الأحداث منهم ر يقوكاتوس وتابعته العبدة فيليستاس وساتورنينوس وسيكونديولاس، وكان بينهم آمرأة من عائلة شر يفة ومثقفة تدعى ڤيبيا پر پتوا، تزوجت برجل شر يف، وكانت تعيش مع والديها وأخو ين لها، أحدهما مثلها موعوظ (١) حديث. وقد رزقها الله بوليد كان يرضع على صدرها، وهي لم تكن تناهز أكثر من آثنين وعشر ين عاماً، وقصة استشهادها تبدأ بخط يدها هكذا:

[وعندما كنت لا أزال مع جماعتي ــ التي أُمسِكَت حديثاً ــ جاءني والدي منفعلاً ــ من جراء شدة عاطفته نحوي ــ محاولاً زعزعتي وتحطيم عزيمتي فبادرته:

«أبي! أترى هذه القُلَّة التي تحوي الماء أمامك؟»

فقال لي: «نعم أراها»...

فسألته: «هل يمكن أن تغيِّر القُلَّة آسمها؟»

فأجابني: «طبعاً لا»...

فبادرته: «هكذا أنا أيضاً لا يمكن أن أُدعى بغير آسمي، مسيحية!!»

وعندما وقعت كلمة «مسيحية» على أذني والدي، هاج واندفع نحوي كأنما يود تخز يق عينيَّ؛ ولكنه جمد واكتفى بإهانتي إذ انحلت قوته عندما اقترب مني، كما انحلت كل حججه الشيطانية!

المعمودية إعداد للآلام:

وأخذوني بعيداً، ففارقت أبي إلى عدة أيام، وشكرت الرب على ذلك إذ شعرت

---

(١) الموعوظ هو طالب العماد ليصير مسيحياً. وكان له مكان خاص و برنامج خاص بالكنيسة من أجل إعداده لنوال نعمة الحياة الجديدة.

براحة ونشوة في غيابه. وفي هذه الأيام القليلة عمَّدونا جميعاً، وتقبَّلت أمراً من الروح القدس أن لا أهتم بشيء قط بعد خروجي من الماء المقدس سوى تحمُّل الآلام الجسدية!!

ولم يَطُلْ علينا الوقت، فبعد أيام قليلة أُودعنا السجن، فاعتراني في البدء خوف شديد إذ لم يسبق لي قط الوجود في هذا الظلام... ياله من يوم مرعب... الحرارة فظيعة لا تُطاق!... إني أتعزى بالجماهير المزدحمة... ولكن ما أقسى أيدي الجنود... قلقي يمزقني بسبب غياب آبني الرضيع...

لقد تدخل الشماسان المباركان ترتيوس و پومپونيوس اللذان كُلفا بخدمتنا — ودفعا شيئاً — فنقلونا لعدة ساعات إلى مكان أفضل داخل السجن، لنلتقط أنفاسنا. وأخيراً خرج الكل وانفضت الجماهير و بقينا وحدنا...

رضيعي معي في السجن:

لقد أحضروا لي آبني الرضيع الذي كان مغشي عليه من الجوع، فأرضعته وسلَّمته لأمي وقد أوصيتها عليه بحرارة... وشجعت أخي الآخر وأوصيتهم جميعاً على آبني!...

وقد اعتراني اكتئاب شديد لما وجدتهم في حسرة وغمٍّ من أجلي... وقد ظللت أعاني من القلق والإكتئاب عدة أيام، وأخيراً حصلوا لي على إذن بدخول رضيعي معي في السجن. وفي الحال استعدتُ قواي وفارقني القلق والإكتئاب، فصار السجن في نظري كأنه قصر، و وددت أن أبقى فيه أفضل من أي مكان آخر.

وجاءني أخي قائلاً: «أختي الحبيبة، أنتِ الآن في كرامة عظيمة تؤهلك أن تصلي من أجل رؤ يا، فاطلبي حتى نعرف هل سينتهي الأمر بإطلاقك أم بتعذيبك».

وإذ كنت أعلم أني فعلاً عندي كلمة الرب الذي من أجله قد صرت هنا، أعطيته وعداً بثقة: «باكراً سأعطيك الكلمة»! وتضرعت إلى الرب، فظهر لي الآتي:

الرؤيا الأولى: عن الصراع مع الشيطان:

رأيت وإذ بسلم نحاسي، طوله عجيب، يمس السماء، ولكنه من الضيق بالقدر الذي لا يسمح إلا لواحد فقط بالصعود عليه، وعلى جانبي السلم أسلحة حديدية مدججة من كل نوع: سيوفٌ ومديٌّ وخناجر وخطاطيف، حتى إذا كان أحد يغفل أثناء صعوده، أو لا يُثبِّت نظره إلى فوق دائماً، فإنه حتماً يتمزق بهذه الأسلحة.

وفي نهاية السلم من أسفل يربض تنين ضخم يتربص بالصاعدين و يزعجهم ليعرقل صعودهم.

ورأيت وإذا ساتورس يصعد في الأول باذلاً نفسه عنا بمحض حريته، ولا عجب فإيماننا جميعاً كان من صُنع يديه مع أنه لم يكن حاضراً وقت أن تم القبض علينا، ورأيته صاعداً حتى بلغ نهاية السلم ثم انحنى والتفت إليَّ قائلاً: «برپتوا، أنا في انتظارِكِ ولكن احترسي من التنين حتى لا يؤذيكِ». فأجبته: «إنه لن يؤذيني، باسم يسوع المسيح».

فأدار التنين رأسه عني وكأنه في ذعر مني. وإذ بي بدل أن أضع رجلي على أول درجة أضعها على رأس التنين وأعبر منها إلى السلم وأصعد عليه.

والتفتُّ وإذا بحديقة متسعة وفي وسطها إنسان جالس، شعره أبيض، وعليه لباس الرعاة، وكان فارع الطول، ورأيته ينحني ليحلب غنمه، وكان حوله ألوف متسربلين بثياب بيضاء. فرفع الراعي رأسه ونظر إليَّ وكلمني: «حسناً جئتِ يا بُنيَّة». ودعاني نحوه وأعطاني قليلاً من اللبن الذي حلبه فمددت يديَّ المربوطتين وأمسكت بالوعاء، وشربت، فإذا بكل الجمع الواقف يقول معاً: «آمين»... وعلى صوت الكلمة استيقظت، وما يزال في فمي شيء حلو كالعسل.

وفي الحال دعوت أخي وأعلَمْتُه بالرؤيا، فعرفنا أننا لابد سنتألم، وحينئذ فقدنا الأمل في هذا العالم.

و بعد أيام قليلة ذاع خبر أننا قادمون على امتحان شديد.

محاولات أبي:

وفي هذه الأثناء جاء أبي من المدينة معييً من الهمّ، وصعد الجبل الذي عليه السجن، ودخل ليرانا محاولاً بيأس أن يزعزع عزيمتي، و بادرني بحزن:

«يا ابنتي، ارحمي شيبتي، أشفقي على أبيكِ، إن كنت استحق ــ بعدُ ــ أن أُدعى أباً لكِ في نظرك. لقد حملتك ونشأتك بهاتين اليدين، لقد أحببتكِ وميَّزتك على كافة إخوتك، لا تسلميني إلى مذمة الناس وفضيحتهم، أُذكري أمك وإخوتك وخالاتك وابنك الرضيع الذي لن يستطيع أن يعيش بدونك. انزعي كبرياءك، لا تحطمي نفوسنا جميعاً فلن يستطيع أحد منا أن يرفع رأسه أو يتكلم بحرية بسببك إذا أصابك شيء».

وظل يتكلم بحرقة وهو يُقبِّل يدي، وأخيراً ارتمى على رجلي و بكى وهو يخاطبني بلقب «سيدة»...

وقد حزنت أشد الحزن عليه لأنه الوحيد في عائلتي الذي لم يسعد ولم يفرح بتعذيبي. فابتدأت أُعزِّيه:

«إعلم يا أبي أن كل ما يحدث هنا هو حسب مشيئة الله، وتأكد جداً أننا لا يمكن أن نتصرف حسب مقدرتنا فنحن واقعون تحت قدرة الله».

فتركني وهو مهموم حزين كسيف البال...

المحاكمة:

وفي يوم، بينما نحن نتناول وجبة الظهر أخرجونا بعجلة إلى سوق المدينة، لكي يمتحنونا. و وصلنا إلى مكان السوق، وإذ عُلم الخبر، تجمع شعب غفير. وأوقفونا على رصيف عال. و بدأوا يستجوبوننا، فاعترف كثيرون بالإيمان. وجاء دوري، وإذ بي ألمح أبي واقفاً قُبالتي حاملاً ابني الرضيع واقترب مني حتى صار على بُعد خطوة وناداني: «ارحمي رضيعك»!... وإذ بالقنصل هيلاريان الذي كان قد تسلم سلطان الحكم

٨

بالموت أو بالحياة على كل المسجونين خلفاً للوالي مينوسيوس تيمينانوس يقول لي:

« إشفقي على شيخوخة أبيكِ، وارحمي رضيعك الصغير وقدّمي ذبيحة عن سلامة الإمبراطور»...

فأجبته على الفور: « كلا » !...

فسألني: « هل أنتِ مسيحية ؟ »...

فأجبته على الفور: « نعم » !...

ولما حاول أبي أن يقتحم الحديث ليثنيني عن عزمي، أمر هيلار يان أن يُطرح بعيداً. فألقاه العسكر على الأرض وضربه القاضي بالعصا! فارتجت نفسي بسبب الورطة التي وقع فيها أبي وكأن العصا وقعت على رأسي أنا؛ وحزنت غاية الحزن بسبب ما أصابه وهو في كبر أيامه.

الحكم:

وحينئذ وقف هيلار يانوس ونطق بالحكم على جميعنا. وكانت العقوبة أن نُطرح كلنا للوحوش! فخرجنا كلنا بفرح وتهليل واستُودعنا السجن.

فلما عدت أطلب ابني لأرضعه، عاد إليَّ پومپونيوس الشماس يخبرني أن أبي رفض أن يعيده إليَّ. وكأنها إرادة الله، فلا الطفل عاد يطلبني، ولا صدري عاد يُدرّ اللبن!... فتوقف قلقي في الحال وزال الألم الذي كان يعاودني في صدري من جراء انحباس اللبن.

● ● ●

الرؤيا الثانية: عن دينوكراتس والصلاة من أجله:

وبعد أيام بينما كنا كلنا واقفين نصلي، فجأة نطقت بصوت عال اسم دينوكراتس، واندهشت للغاية إذ أنه لم يخطر على بالي قط حتى هذه اللحظة، وإذ بي أشعر بحزن من أجله بسبب ما اعتراه. وفي الحال رأيت وكأنما أعطيت الفرصة والتزام التضرع من أجله، فابتدأت أصلي بحرارة عنه وبكيت كثيراً لدى السيد الرب، وفي مساء اليوم عينه رأيت

الآتى :

« رأيت دينوكراتس قادماً من مكان مظلم ، يحيطه الظلام من كل جهة ، وهو في حُمّى ، وملتهب عطشاً ، ووجهه شاحب ومكمد ، والجرح الذي في وجهه الذي مات به لا يزال كما هو. ودينوكراتس هو أخي بالجسد الذي كان قد مات وهو بالغ من العمر سبع سنوات بغنغرينا شديدة في الوجه جعلتنا كلنا نمتلىء وجعاً عليه.

ولما بدأت صلاتى كان يفصلني عنه هوة سحيقة ، فكان عسيراً على كل منا أن يأتى للآخر ، وكان بالقرب منه فسقية مملوءة ماءً ولكن حافتها كانت أعلى من رأس دينوكراتس ، فلما وقف على أصابع رجليه لكي يشرب لم يستطع ، فحزنت لأن الفسقية كانت مملوءة ماءً ، و بالرغم من ذلك لم يتمكن من الشرب منها » .

واستيقظت فعلمت أن الولد في ضيقة عظيمة ، غير إني كنت واثقة أني قادرة على إنقاذه من ضيقته . فعكفت في الحال على الصلاة من أجله كل يوم حتى نقلونا من السجن الذي كنا فيه إلى حصن السجن ، لأنه كان مفروضاً أن نُقدَّم إلى الوحوش في ملعب ساحة السجن يوم عيد ميلاد جيتا بنت القيصر ، ولكني ظللت أصلي من أجله ليل نهار بنحيب ودموع حتى يمنحه الله لي .

إستجابة الصلاة :

و بينما كنا فى حظيرة التخشيبة والوقت نهار رأيت الآتى :

« كان نفس الموضع الأول الذي رأيته ودينوكراتس يبدو بجسد مغسول نضير ، متسربلاً بثوب جميل ومبتهج النفس ، ومحل الجرح العميق الذي كان في وجهه رأيت مجرد ندبة . وإذا بالفسقية تنخفض له حتى صارت على مستوى وسطه والماء يتدفق منها بدون انقطاع ، وعلى الحافة قصعة من ذهب مملوءة ماءً ، فجاء دينوكراتس وشرب منها كثيراً والماء بقى كما هو لم ينقص منها . و بعد أن شرب كفايته تقدم نحوي و بدأ يطفر بفرح

كالأطفال. فاستيقظت وعلمت أنه قد عُفي عنه»!

• • •

و بعد أيام ابتدأ بيودينس رئيس أركان الجيش المتولي شئون السجن أن يقدم لنا شيئاً كثيراً من الإكرام عندما أحس بنوع القوة العظيمة التي كانت فينا، وصرَّح لكثير ين بز يارتنا قاصداً الترو يح عن أنفسنا.

ولما اقترب يوم الإستعراض زارني أبي في السجن، وكان معيىً من الهم، وابتدأ ينتف شعر لحيته و يرميه على الأرض. وألقى بنفسه على الأرض و وجهه في التراب وأخذ يلعن سنين حياته و يقول كلاماً صعباً نكّد به على الدنيا كلها من حولنا. فتأسفت جداً في نفسي على عدم سعادة شيخوخته.

• • •

الرؤ يا الثالثة: عن المعركة الفاصلة:

وفي اليوم السابق ليوم مصارعتنا مع الوحوش رأيت في رؤ يا: وإذ بومبونيوس يقرع على باب السجن بشدة، وذهبت وفتحت له، فرأيته متسر بلاً بثوب أبيض ولكن بدون مِنْطقة، وفي رجليه حذاء عجيب الصنع، وابتدرني: «بر بتوا، نحن في انتظارِكِ تعالي...»

وأخذني بيدي وابتدأنا نعبر على قرى و بلاد مخر بة. و بعد لأْي وجهد شديدين، بلغنا أخيراً مسرحاً للمصارعات، وقادني حتى منتصف ساحته وقال لي: «لا تخافي أنا هنا معك وسوف أتألم مثلك، وتركني...»

ثم رأيت جمعاً عظيماً يرقبونني بلهفة، وإذ كنت أعلم في نفسي أني محكوم عليَّ بمصارعة الوحوش، اندهشت لما رأيت الساحة خالية من الوحوش. ولكن رأيت إنساناً جباراً جافي الوجه مع أعوان له يتر بصون لمحار بتي، ولكن جاءني بالمثل جماعة من الشباب النِضَار لمساعدتي. وإذ بي أنسلخ عن شكلي فأصير رجلاً والذين معي بدأوا يدهنون!

جسدي بالزيت كما يُصنع بالذين يدخلون العركة، وكان الجبار يدور على الرمال متأهباً أمامي.

ورأيت وإذا رجل قد دخل الساحة، عظيم للغاية، ومتسربل بثوب قرمزي وفي رجليه حذاء من ذهب وفي يده قصبة و بالأخرى غصن أخضر به تفاح من ذهب ونادى مثل حَكَمٍ قائلاً: «إذا غلبها الجبار يقتلها بسيفه وإذا غلبته فلها هذا الغصن وتفاح الذهب»، وانتحى جانباً.

فاقترب نحوي الجبار، أما أنا فأقدمت عليه وضربته بقبضة يدي، فبادلني الضرب وحاول أن يمسك رجلي، أما أنا فطفقت أضرب وجهه بكعبَي رجلي وأحسست أني أرتفع في الهواء، فأصبحت فوقه أضربه وكأني لست على الأرض.

ولكي لا تطول المعركة، أخذت أضربه بكلتا يديَّ ولما قبضت على رأسه ودفعته سقط على وجهه، فأسرعت ودست على رأسه. فبدأ الشعب يهتف لي، أما معاونيَّ فكانوا ينشدون بالمزامير، وتقدمت إلى الحَكَم وتسلمت الغصن ذا التفاح، وأعطاني إياه قائلاً: «سلامٌ لكِ يا بُنيَّتي»؛ فخرجت بانتصار صوب الباب وكان مكتوباً عليه: «باب الحياة». ولما استيقظتُ، علمتُ أني قادمة في الحقيقة ليس لمصارعة وحوش وإنما لمصارعة الشيطان نفسه! ولكني كنت واثقة أني منتصرة!...

هذا كتبته قبل يوم الإستعراض].

■ ■ ■

هذه هي الرؤيا المعروفة التي كتبتها بيدها برپتوا الشهيدة المطوبة. وقد كتبتها قبل يوم الإستعراض.

استشهاد سيكونديوس، وفيليستاس تتفرغ للإستشهاد:

[أما بخصوص سيكونديوس، فالرب دعاه للرحيل مبكراً بينما كان لا يزال في

السجن ـــ لا كأنه بدون مجد من النعمة ـــ إذ أُعفي من مصارعة الوحوش، لأن جسده قد تعرَّف على حد السيف!!

وأما بخصوص فيليستاس فقد افتقدتها نعمة الله هكذا:

لما كانت حاملاً وهي في شهرها الثامن، عندما قُبض عليها، كانت كلما اقترب يوم الإستعراض تزداد حزناً بسبب خوفها الشديد لئلا يتعطل استشهادها، بسبب كونها حاملاً ـــ لأن القانون الروماني يحرم عقوبة النساء إذا كنَّ حوامل ـــ وكانت تخشى أن يُسفك دمها الطاهر في مناسبة أخرى ربما تكون بين فعلة الشر.

وكان الشهداء زملاؤها في قلق عميق عليها لا يريدون أن يتركوا وراءهم رفيقة صالحة سارت كل الطريق معهم على نفس الرجاء!...

فاجتمعوا معاً وأخذوا يبكون بصلاة منسكبة أمام السيد الرب يومين كاملين من أجلها قبل الإستعراض. وقد حدث بعد صلاتهم مباشرة أن أحست فيليستاس بوجع المخاض ينقلب عليها، ولأن الولادة في الشهر الثامن أمر خطر لذلك عانت فيليستاس آلاماً مبَرِّحة. وعندما قالت لها إحدى القابلات باستهزاء: «أنتِ تتألمين الآن هكذا، فماذا أنتِ فاعلة عندما يلقونك للوحوش؟»، تحاملت على نفسها وأجابتها بهذا القول: «الآن أنا أتألم ما أتألمه ولكن فيما بعد سيكون فيَّ من سيتألم عني، لأني اشتقت أن أتألم من أجله». وقد وضعت طفلة فأخذَتْها في الحال أُخت مُحبة كانت واقفة وتبنَّتها لنفسها!...

عشاء عيد الحرية!!

وفي اليوم السابق للإستعراض مباشرة، بينما كانوا يقيمون الإحتفال «بالعشاء الأخير»، الذي كانوا يسمونه (بالنسبة للشهداء) **عشاء عيد الحرية** ـــ ولم يكن عيداً بالمفهوم المعتاد إنما كانت مائدة محبة ـــ كانوا يتحدثون مع الناس الذين تجمعوا حولهم،

بقوة عزيمة ليحذروهم من دينونة الله موبخين فضولهم ومعلنين سعادة نصيبهم في قبول الآلام (من أجل الرب). وكان ساتيوروس يقول لهم: «إن غداً لن يفرحكم فسوف ترون فيه ما لا تشتهون، نحن نبدو أصدقاءكم اليوم أما غداً فستظنوننا أعداء فانظروا إلى وجوهنا الآن جيداً حتى تتعرفوا علينا باكر». فخجل الواقفون وانفضوا عنهم وكثير منهم أعلن إيمانه!

ولما أشرق فجر يوم انتصارهم، حملوهم من السجن إلى ساحة الملعب، فكانوا متهللين كأنهم في طريقهم إلى السماء وعلى وجوههم مسحة النعمة وفرحتها. وكانت بربتوا تتبعهم بخطوات خفيفة مشرقة كعروس كاملة للمسيح وكحبيبة لله، تغض الطرف بحياء النعمة إزاء حلقة الجماهير في وجهها، إنما بروح عالية...

أما فيليستاس فكانت مبتهجة إذ وضعت بسلام فصار لها مشتهاها أن تُلقى للوحوش، فخرجت من دم إلى دم!! ومن يد القابلة إلى يد الجلاد!! وهكذا نالت هذه المغبوطة بدم المعمودية الثانية تطهيراً من دم الولادة!!

شجاعة العدالة:

وعندما أشرفوا على الباب أمروهم أن يرتدوا الملابس المخصصة (إمعاناً في الإستخفاف بهم)، فالرجال يرتدون زي كهنة ساتورن، والنساء يرتدين زي مكرسات سيريس، فانبرت لهم بربتوا النبيلة وقاومت هذا الأمر بإصرار حتى النهاية وقالت: «نحن أتينا إلى هذا الإستعراض بمحض إرادتنا حتى لا تُهان حريتنا، وقد جعلنا حياتنا رهن هذه الحرية فلن نعمل هذا العمل وهذا شرطنا معكم!» وهكذا انصاعت عدم العدالة تحت وطأة شجاعة العدالة!! فأمر الضابط المكلّف أن يُسمح لهم بدخول الساحة بملابسهم العادية كما هم!

فدخلت بربتوا أولاً وهي تنشد مزمور الغلبة، وكأنها تطأ رأس الجبار، ومن ورائها ريفوكاتوس وساتورنينوس وساتيوروس ينذرون المتهكمين عليهم بقصاص الله، ولما أشرفوا

على منصة هيلار يان، قالوا له في وجهه: «أنت تحكم علينا اليوم، والله سيدينك». فاستثارت تحدياتهم هياج الجماهير، فهتفوا يطالبون بتعذيبهم بالسياط قبل إلقائهم للوحوش، فكان رد الفعل عند الشهداء مزيداً من الفرح والتهليل إذ كسبوا بهذا نصيباً آخر في آلام الرب!

شهوات الشهداء:

وكأنما الذي قال: «اسألوا تُعطَوا»، قد تسمَّع إلى اشتياق قلوبهم، وأجاب مطلبهم، فمنحهم أن يموتوا كل واحد بالموت الذي كان يشتهيه!

لأنهم بينما كانوا يتسامرون فيما بينهم عن آمالهم في طريقة استشهادهم قال ساتورنينوس إنه يود لو يطوف على كل الوحوش، طمعاً في أن يلبس إكليلاً أفضل!! وهذا ما تم له بالفعل، ففي بداية العرض أخرجوا عليه النمر الأسود، وهو أشرس الوحوش، ولكن النمر جفل منه وأبى منازلته، وأخيراً حظي بلطمات هارسة من الدب جعل جسده يتناثر على الرصيف...

أما ساتوروس إذ كان يكره الدب اشتهى أن ينطلق بعضة واحدة من النمر، فلما أطلقوا عليه الخنزير البري المتوحش هجم الخنزير على مروض الوحوش وافترسه، أما ساتوروس فلم يُصَبْ فجرُّوه. ولما أعادوا تقديمه إلى الدب رفض الدب أن يتحرك من مكانه... وهكذا خرج ساتوروس لثاني مرة دون أن يُصاب.

شهيدات عفيفات حتى وقت استشهادهن:

أما بربتوا ورفيقاتها فقد أعدَّ لهن الشيطان بقرة أنثى متوحشة مجنونة أبقاها العدو لهن، فحينما طرحوا النساء إليها، وهن عرايا ملفوفات في شباك، ارتاع الجمهور من المنظر إذ رأوا سيدة صغيرة لا تناسب الموقف وآمرأة يتساقط اللبن من ثدييها، فصرخ كل الشعب من هول المنظر؛ وحينئذ اضطر المسئولون أن يسحبوا النساء جميعاً و يغطوهن كلاً برداء يستر جسدها ثم ألقوهن للوحوش، وكانت بربتوا أول من ضربتها البقرة فألقتها على جنبها

ومزقت رداءها، فتساندت الشهيدة وحاولت أن تضم أطراف الرداء الممزق لتستر نفسها فكانت في موتها لا تقل اهتماماً بعفتها من حياتها!

وأشارت إلى الواقفين تطلب دبوساً وأصلحت شعرها، وكأنما عروس المسيح لا ينبغي أن تستشهد وهي غير مهندمة، أو حتى لا يُظن بها أنها تنوح في ساعة الغلبة والمجد.

الصراع:

ثم تساندت پر پتوا حتى وقفت على قدميها والتفتت تطلب فيليستاس التي كانت قد صرعتها البقرة المتوحشة حتى رضضت جسدها، ولكن بمساعدة پر پتوا تحاملت على نفسها حتى وقفت، فوقفت الإثنتان معاً تتساندان على بعضهما. وقد أعانهما قليلاً الموعوظ روستيكوس الذي كان واقفاً بجوارهما، ولما أفاقت پر پتوا إذ كانت في حالة غيبوبة روحية بدأت تنظر حولها وتسأل: «أين البقرة ومتى يدفعوننا إليها؟»، وعندما أخبروها أنها قد صارعت البقرة فعلاً، لم تصدق، لولا أنها أحست بجسدها الممزق وملابسها الملطخة بالدم. وحينئذ نادت أخاها وقالت له: «إثبتوا في الإيمان وأحبوا بعضكم بعضاً ولا تجزعوا من آلامنا».

أما ساتوروس فوقف يستحث بيودينس رئيس السجن قائلاً: «ها إن كل ما توقعته قد حدث فلم يقبل أيُّ وحش أن يؤذيني، ولكي تصدقني فأنا سأذهب بنفسي إلى النمر، وسترى أنه بعضة واحدة ينتهي كل شيء».

وقبل نهاية العرض بلحظة أطلقوا النمر وإذا به يهجم على ساتوروس و يعضه عضة واحدة، فسقط مضرجاً بدمائه، والشعب يهتف لمعموديته الثانية: «طوبى لك، حميماً مقدساً، طوبى لك، حميماً مقدساً». نعم طوباه بالحقيقة إذ نال حميماً بهذا الوصف!! وفي نَزْعِه كان يهتف برئيس السجن بيودينس — وهو مسيحي — «وداعاً احفظ إيماني وذكراي عندك ولا تدع تعذيبي يعرقل إيمانك بل ليته يشددك». وطلب خاتم بيودينس وغمسه في دمه الطاهر وألقاه له **«كميراث إيمان»!** وحملوه مغشياً عليه إلى المكان المعد

للإنهاء على جميعهم بحد السيف!

وقد طلب الجمهور أن يكون ذلك المكان مكشوفاً ليشتركوا مع المذبوحين برؤ يا العين حتى يستطيعوا أن يقدموا لهم النظرة الأخيرة! وقد قام الشهداء جميعاً في الوسط تلبية لرغبة الجماهير، و وقفوا أمامهم وقبّلوا بعضهم بعضاً حتى يكملوا شهادتهم بطقس «الصلح» (ما يسبق رفع الذبيحة في القداس الإلهي).

وأخيراً، الشهادة:

و بدون أي حركة، تقدم الجميع الواحد تلو الآخر، وفي هدوء وصمت تقبّلوا السيف على رقابهم، ولكن ساتوروس كان أول من تقبّل حد السيف وفي صمت عظيم أسلم الروح كما سبق وتنبأت له پر پتوا في الرؤ يا أنه سيكون أول من يتسلق السلم!... و وقف هناك هناك في أعلى السلم ينتظر پر پتوا!

وقد تميزت پر پتوا بجزء أوفر من الآلام إذ ضربها السيف في مكان العَظْمة، فصرخت، وأشارت بيدها إلى الجلاد ــ الذي كانت ترتعش يده بالسيف ــ إلى مكان الذبح في رقبتها!

• • •

حقاً قد كانت پر پتوا امرأة عظيمة، وليس عبثاً كان يرتعب منها الشيطان حتى أنها لم تمت إلا حينما شاءت وكيفما شاءت!

يا للشهداء الشجعان السعداء...
يا للمدعو ين والمختار ين حقاً لشركة المجد مع يسوع المسيح...

أما كل من يريد أن يعظّم و يكرّم و يعبد المسيح، فعليه أن يخبر بهذه الأمثلة فهي ليست أقل مجداً من الذي حدث قديماً، حتى بهذه الأمثلة الجديدة (٢٠٥م)، فنحن يمكننا أن نشهد للحق الواحد الذي في الروح القدس الذي يعمل حتى الآن مع الآب الله

القادر على كل شيء ومع ابنه يسوع المسيح ربنا الذي له المجد والقوة بلا قياس إلى الأبد آمين].

انتهى

□

● يا إخوة، إن بربتوا الشهيدة كانت تعتبر مسيحيتها شيئاً غير منفصل عنها، شيئاً تعيشه وتحيا به، فلم يستطع أبوها أن يزحزح إيمانها أو عزيمتها، مع أن إيمان بربتوا كان حديث العهد، فقد تعمدت بعد القبض عليها وقبل استشهادها بأيام قليلة، ولكن كان الإيمان بالمسيح عند بربتوا قد بلغ معياره الصحيح، ومعياره الصحيح دائماً هو قبول الإستشهاد!!

● يا إخوة، افتحوا آذانكم لصوت الروح القدس الذي تكلم في قلب بربتوا بعد عمادها فقد قال لها: «منذ الآن لا تهتمي للحياة بل للموت»!! وهو نفس صوت السيد الذي قال لنا: «من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها»... وما معنى هذا؟... معناه أن سعينا الكثير لتوفير الراحة والأمان والإطمئنان للحياة الجسدية يشقينا ويفسدنا، أما اهتمامنا الروحي بإماتة شهواتنا واحتمال آلام وضيق الحياة من أجل يسوع المسيح يخلصنا ويسعدنا!...

● يا إخوة، بربتوا سلمت رضيعها لتذهب وتستشهد، لم تشفق على أمومتها. لقد قدمت بربتوا عاطفة الأمومة وذبحتها على مذبح الإيمان والشهادة، هذا أقصى تعبير عن سمو الإيمان فوق الجسد، ونصرة الروح على العاطفة!... يهوذا باع المسيح بثلاثين من الفضة وبربتوا باعت نفسها وجسدها ودمها وروحها وابنها وأسرتها لتشتري رضى المسيح وحبه!...

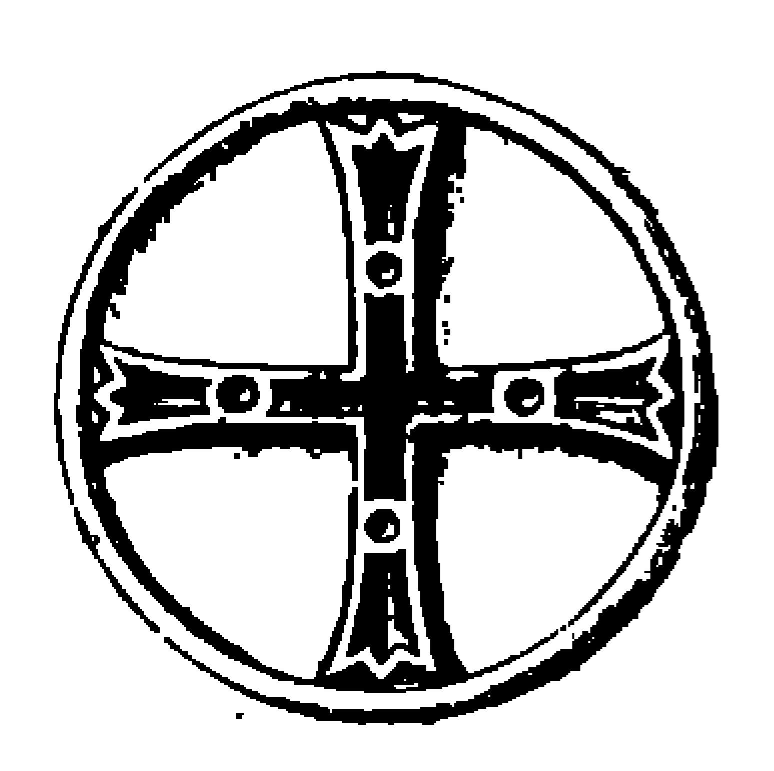
أنظر أنت إلى أي الطريقين تنتمي؟...

● يا إخوة، أنظروا هذه الشهيدة واعلموا أن دم الشهادة يفتدي، يفتدي من الموت. لقد افتدت پرپتوا واحداً من الموتى رفعته بصلاتها من الظلمة وأهّلته بدموعها لغسيل النعمة، وبتوسل دمها وصراخها شرب ماء الحياة وعاد إليه الفرح... وافهموا واعلموا أن شفاعة شهداء المسيح عظيمة، لأن دمهم يتكلم بدالة أمام الله.

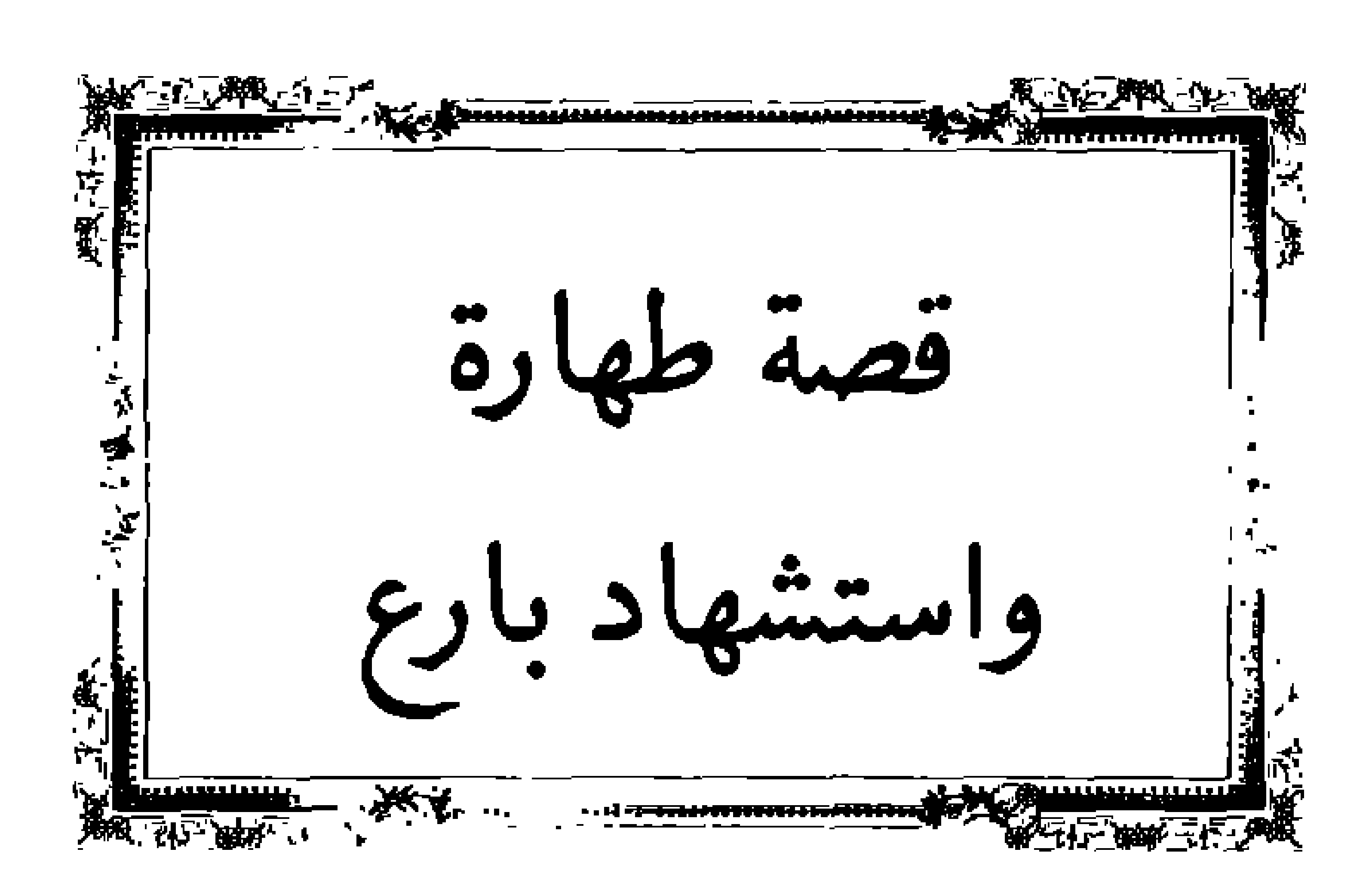
● يا إخوة، إن رؤية پرپتوا صادقة، فالآلام التي نعانيها في هذا الدهر وكل تعاذيب الأشرار وأوجاع الجسد هي من حسد العدو وهي في حقيقتها مصارعة مع قوات الجحيم التي تجاهد ضدنا لنيأس حتى يُنتزع إكليلنا، فاثبتوا ولا ترتاعوا وإله السلام يسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً!...

● يا إخوة، عجبي على فيليستاس العبدة التي ضارعت سيدتها في إيمانها وشجاعتها وعزمها وتصميمها، أنا منذهل من التي اشتهت أن تلد سريعاً لتتفرغ للإستشهاد، أبهذا المقدار صار الإستشهاد أعظم من البنين والبنات؟! والموت من أجل المسيح بالعذاب والتمزيق أسعد من حمل الأطفال على الصدور؟!... آه يا يسوع يا لك من إله عجيب تستطيع أن تسلب القلوب والعواطف حتى قلوب الأمهات المرضعات!...

● يا إخوة، أنظرتم كيف تقدم هؤلاء الشهداء للوحوش بمزامير الفرح، والنعمة على وجوههم مشرقة، وخطواتهم خفيفة ثابتة؟ ثم أنظرتم كيف بعد آلام وتمزيق الوحوش وقفوا صامتين هادئين ينتظرون دورهم في الذبح؟ أتريدون أن تعرفوا ما هو سرُّ ثباتهم؟ ... هو محبتهم للمسيح حباً أقوى من الموت!!



(٧)





كـانـت تـعـيـش في كـورنـثـوس فتاة مسيحية من بيت شر يف ذات جمال جذاب ، وكـانت قد نذرت نفسها لتعيش عذراء للمسيح كل حياتها . وحدث لما حلَّ اضطهاد ــ في تـلك النواحي ــ أن سلموها للحاكم الوثني بدعوى أنها لعنت الأوثان والذين يخدمونها حتى والـذيـن في الـسـلـطـان. أمـا الذين تسلموها لتعذيبها فقد انشغلوا عن تعذيبها بجمالها وكانوا يتحدثون عنها في كل مكان .

والحـاكـم إذ كـان رجـلاً شـهوانياً تفتحت أذناه على حديث الناس وتحركت شهوته كـحصان جامح ، فعوَّل بكل حيلة لكي يسقطها في غوايته ولكنه إذ باء بالفشل لم يشأ أن يـعـاقـبهـا أو يـسـلـمـهـا إلى الموت وإنمـا تنفيساً لغضبه وضعها في مكان للدعارة ــ داخل الـسـجـن ــ وأوصى القائم على النز يلات هناك أن يستلم هذه الفر يسة الجديدة على أن يدفع للحاكم أجرتها ثلاث عملات في اليوم .

أمـا الـقـائم على ذلك المكان فعرضها على من ير يدها بهذا الأجر. فتقدم إليها الفسقة المـشـتـغلة بصيد النساء ــ والسجون مليئة بهذا الصنف من الرجال ــ فدفع الأجر مقدماً وابتدأ يراودها عما أضمر به في نفسه .

فـأخـذت تـسـتعطفه وتتوسل إليه وأوهمته أن بجسمها قرحة خبيثة كريهة الرائحة جداً وأفـهـمـتـه أنهـا لو كشفت نفسها سوف يتقزز منها و يبغضها وطلبت منه مهلة قصيرة حتى تُشفى .

أمـا هـي وإذ قـد حـصـلـت على هـذه المـهـلـة سكبت نفسها أمام الله متوسلة إليه أن يحـفـظـهـا ، وإذ تـطلع الله إلى نفسها وفضيلتها ألهم شاباً كان قد نذر نفسه لخدمة الله ، أن يعمل رحمة معها و ينقذ نفسها ويموت موت الشهداء!

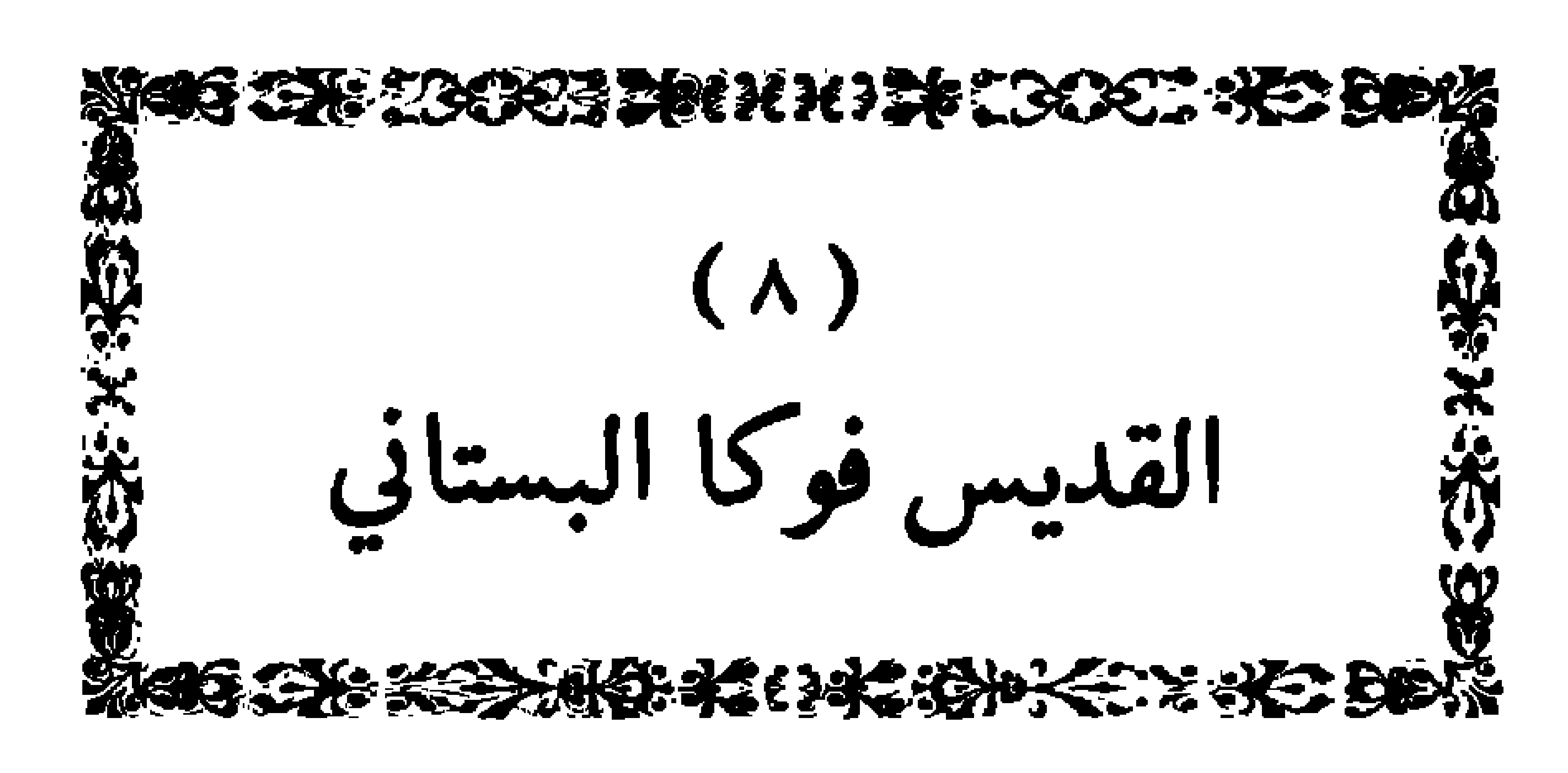
فادّعى الشاب أنه كَلِفٌ بالشهوة وذهب إلى رئيس السجن في عتمة الليل ودفع له خمس عملات على أن يتركه معها الليل كله.

وحالما دخل إلى غرفتها المخصصة لحبسها ناداها: «هيا قومي يا أختي فقد جاءك الخلاص»، وخلع لها كل ملابسه ــ القميص والثوب والعباءة ــ فاستبدلت هي ثيابها وتزيت بزي الرجال وكانت وصية الشاب الأخيرة: «إطرحي هذه العباءة على كل جسدك واخرجي سالمة حالاً من هذا المكان». أما هي فرشمت نفسها بعلامة الصليب وهكذا خرجت من المكان سالمة طاهرة دون أن تُمس عفتها.

ولما أصبح الصبح عُرف الأمر كله لدى كل الناس وانكشف عمل الشاب فطُرح للوحوش، وهكذا باء الشيطان بالخزي والعار، وأما الشاب فنال إكليل الإستشهاد...

• أنظروا يا إخوة، كيف حفظت هذه الفتاة نذرها في أشق الظروف وأحرجها؟... وبينما يتماحك الكثيرون في هذا الزمان بعثرات العالم وانحلال البيئات ليبرروا سقطات عيونهم وقلوبهم وآذانهم في النجاسة والشهوات؛ إذ بهذه العفيفة الطاهرة تحفظ عفتها وهي سجينة في مكان للدعارة!!...

• ثم آذكروا ذلك الفتى الشجاع الأمين في خدمة سيده كيف مات لينقذ عفة فتاة، بينما نرى خداماً كثيرين في هذا الزمان وربما أنفسنا تكتفي براحتها وسلامها، بينما حولها شباب كثيرون وشابات كثيرات يسيرون باستهتار في طريق الإثم ويهلكون بالخطيئة ومنهم من يصيرون محترفين للدعارة...



محبة للمسيح أقوى من الموت!
وعزيمة إيمان أحدُّ من السيف!



فوكا كان رجلاً عامياً، يسكن في مدخل بلدة سينوبي، مدينة في آسيا الصغرى تطل على البحر الأسود. وكان يملك بستاناً صغيراً يتعايش من زراعته، وكان فوكا يقرن صلاته بعمل يديه حتى صار بستانه وكأنه كتاب مفتوح على الدوام أمامه، يقرأ فيه أعمال الله الفائقة و يسبّح بمجده و يشكره آناء الليل وأطراف النهار. فكان بستانه الصغير ينبوع تأملاته الذي لا ينضب.

أما بيته فكان مفتوحاً على الدوام لكل غريب أو مسافر يُمسي عليه الليل ولا يجد مأوى في تلك البقاع النائية. و بعد أن ظل فوكا لسنوات عديدة يعطي كل ما عنده لكل من يقصده بسرور وسخاء، وُجِدَ أخيراً مستحقاً أن يعطي حياته من أجل المسيح.

في أوائل القرن الرابع، عندما هبّت على الكنيسة عاصفة اضطهاد عاتية في أيام دقلديانوس الجاحد، نمى إلى والي إقليم البُنْطُس أن فوكا البستاني يدين علناً بدين المسيح. فحنق الوالي عليه ولكنه أَنِفَ أن يستدعيه أو يحقق معه و يعامله بمقتضى القانون، بل اكتفى بأن أثبت القضية ضده وأجرى محاكمته غيابياً، و بناءً عليه أرسل بعضاً من الجند ليبحثوا عنه و ينفذوا فيه حكم الإعدام أينما وجدوه!... وكان ذلك استصغاراً من الوالي بشأن الفلاح الفقير، إذ كيف يجسر هذا الصعلوك على مخالفة أوامر القياصرة؟!

فذهب الجند في طلبه وجعلوا يبحثون عنه في تلك النواحي سراً لئلا يستشعر بهم فيفلت من أيديهم. وكان أنهم لما وصلوا إلى سينوبي لم يقدروا أن يدخلوا المدينة لأن الوقت أمسى عليهم وقد أُعيوا من طول السفر فتوقفوا عند مدخلها بجوار بيت فوكا دون أن يعرفوه!... فلما خرج وراءهم رحب بهم ودعاهم ليبيتوا عنده فلبُّوا دعوته...

فما كان من فوكا إلا أن أكرم وفادتهم كعادته وقدّم لهم طعاماً وشراباً، وجهز لهم

مواضع راحة للنوم، ثم جلس يحييهم و يسامرهم. ولما أنسوا إليه، أعلموه بسرهم وبمهمتهم التي من أجلها جاءوا وطلبوا منه أن يدلهم على فوكا البستاني إن كان له معرفة به!

أما هو فلما سمع هذا لم يضطرب ولا بدا على مظهره أي شيء من الخوف، بل ظل هادئاً ووعدهم أنه سيتمم لهم مطلبهم وأمهلهم إلى الغد مؤكداً لهم صلته الوثيقة بفوكا غنيمتهم التي يطلبونها، ثم تمنى لهم نوماً هادئاً ومضى...

أما هو فإذ علم أن ساعته قد جاءت، وأن الوالي أخرج قضيته وها هو قد أرسل الجند في طلبه لكي يقتلوه، لا لسبب سوى إيمانه بالمسيح، قام لتوه وبهمة وشجاعة حفر قبره بيديه، وجهز كل ما يلزم للدفن وكأنه مكلف بمأمورية رسمية، ثم أمضى الليل كله ساهراً مصلياً ليعد نفسه لإستقبال الموت، وقد أخذته نشوة من الطرب إذ وُجد أهلاً أن يبذل حياته حباً وكرامة في المسيح إلهه، وأخذ يترقب بزوغ الفجر وهو يتضرع إلى الرب لكي يقويه.

فلما لاح نور الصباح دخل إلى ضيوفه الجند ووجهه يطفح بشراً، فأطعمهم وأكرمهم ثم بادرهم بلهفة:

«إن فوكا الذي تطلبونه هو الآن بين أيديكم وفي استطاعتكم أن تقبضوا عليه إذا شئتم»!

ففرحوا بذلك وسألوه: «أين هو؟».

فقال لهم: إنه هنا معكم!!

فوقفوا مستعدين لأنهم ظنوا أنه بالقرب من البيت.

فقال لهم: أنا هو فوكا المتكلم معكم! أنا هو الرجل الذي تطلبونه!!

فدهشوا للغاية وظنوه يسخر منهم، ولكنه عاد فأكد لهم أنه هو فوكا بعينه...

وقال لهم: الآن ما عليكم؟ تمموا ما أُمرتم به!!... وها أنا ذا طائعاً بين أيديكم!!

فاضطربوا وارتاعوا وأخذتهم الحيرة من هذا المسلك الغريب، وأدهشهم جداً كيف تسنح الفرصة لرجل محكوم عليه بالموت ليهرب و ينجو بحياته، فيرفض!! ثم يأتي بنفسه

و يضع عنقه تحت حد السيف؟! وتحيروا في أنفسهم جداً إذ كيف يسوغ لهم أن يفتكوا برجل كريم كهذا، أضافهم وأكرم وفادتهم!! وها قد صار بينه و بينهم أواصر صداقة ومودة؟!

لكن فوكا وقف يهدىء من روعهم و يعيد إليهم إحساسهم بواجبهم مؤكداً لهم بكل هدوء أنه يعتبر استشهاده اليوم من أعظم النعم وأسمى الإمتيازات التي وُهبت له... و بدا أمامهم بشوشاً مغتبطاً وكان ذلك عن يقين إذ أحس أنه دعي للموت من أجل إلهه الذي يعبده!!... وأدخل في روعهم أنهم بقتلهم إياه لن يخونوا عهد الصداقة أو الضيافة، أليسوا هم رسلاً مكلَّفين بتنفيذ ما أمروا به؟...

وما زال به يهوِّن عليهم أمر ذبحه ويحثهم و يدفعهم إلى إتمام الواجب المفروض عليهم حتى أفاقوا من ذهولهم ودهشتهم أخيراً وقبلوا ذلك إنما بصعوبة شديدة، وفي جزع ومرارة وحسرة أخبروا حكام المدينة وأخذوا رأس فوكا بحد السيف...

فتجمهر الإخوة محبو المسيح ودفنوه في نفس القبر الذي احتفره لنفسه، وعادوا مشدوهين يروون لكل من صادفهم قصة هذا المسيحي الطيب الذي أسر قلبهم بحبه وشجاعته وإيمانه!!

و بعد أن زال كابوس الإضطهاد ذكرت هذه المدينة شهيدها البطل وأكرموا جسده الطاهر و بنوا على آسمه كنيسة تليق بإيمانه، تحمل ذكراه إلى الأبد.

وفي حوالي سنة ٤٠٠م. وقف القديس استير يوس أسقف أماسيا يطوِّب هذا الشهيد العظيم في يوم تذكار استشهاده في الكنيسة التي تحتفظ بجزء يسير من ذخائره المقدسة، فقال:

«إن فوكا منذ يوم استشهاده صار عموداً في كنيسة المسيح، ودعامة إيمان راسخ للمؤمنين في كل زمان ومكان، فسيرته أصبحت تجتذب القلوب وترفعها إلى مستوى الإيمان اللائق بالمسيح، وها قد امتلأت الطرقات من الأشخاص الآتين من كل بلاد الدنيا للصلاة في كنيسته وللتشفع به. إن هذه الكنيسة العظيمة التي تحتفظ بجزء من

جسده صارت عزاءً وراحةً لنفوس المتضايقين والمضطهدين...

أما بحارة السفن الذين يجوبون البحار في تلك النواحي حتى الذين في أعماق المحيطات فكانوا في كل أسفارهم ينشدون الأناشيد في مديح فوكا، لأنهم شهدوا أن صلاة هذا الشهيد القديس كثيراً ما كانت لهم هادياً بالليل والنهار وأنقذتهم من المهالك والأخطار» .

• لهفي على ذلك المسيحي الحلو الذي جاهر بإيمانه في سينوبي ولم يخف من سلطان الطغاة!!

• لهفي على الوديع المضياف الذي قاد قاتليه إلى بيته!!

• أنظروا كيف استطاع فوكا أن يواجه قاتليه ببشاشة ولم ينزعج!!

• لم يرتعب، لم ينثنِ، ولا ارتد إلى الوراء بل كلمهم بلطف كلطف سيده: من تطلبون؟ أنا هو!!

• عجبي على الإيمان الحر الخالص الذي استجاب لداعي الموت بالصلاة ورد على نداء السماء بحفر المقبرة!!

• عجبي على المسيحي الحق الذي ما وبخ قاتليه قط. ولا نطق حتى بقول عتاب!!

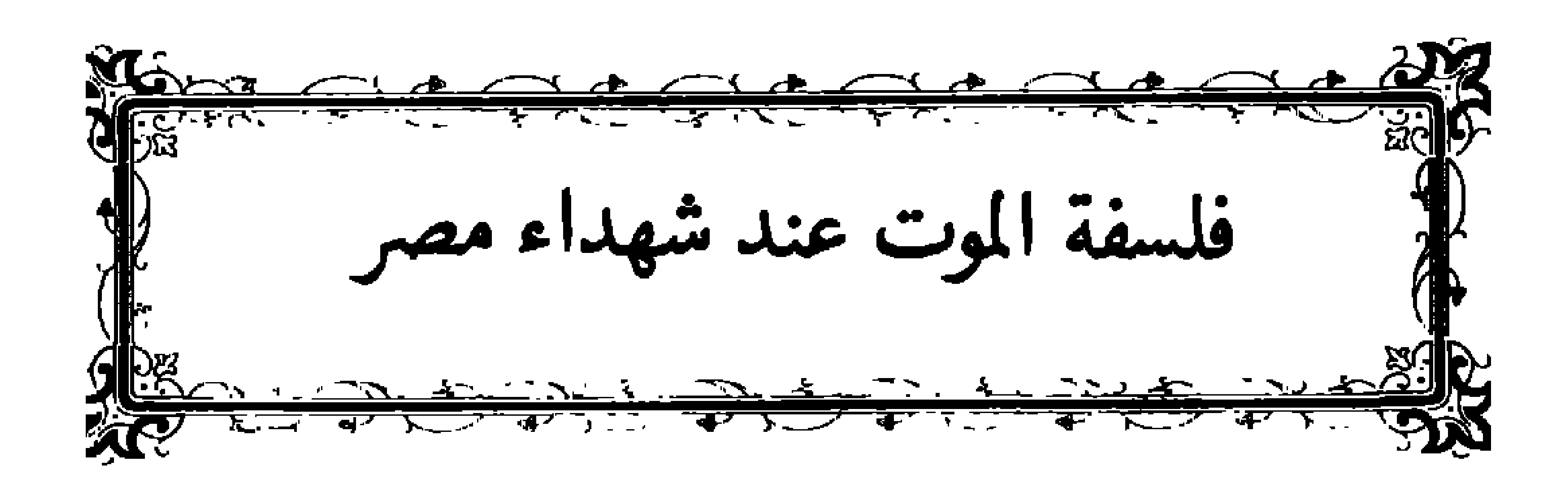
• أنظروا كيف وقف يقنعهم و يلح بضرورة تكميل القضية وكأن الموت شهوة أو غنيمة؟!!

• لهفي على إيمانك يا فوكا وشجاعتك وجلدك يا عملاق سينوبي...

• لهفي على روحك الطاهرة التي طارت من تحت حد السيف تنشد أنشودة الظفر!!

• إليك يا شهيد الإيمان والشجاعة والحب، نبكي ونتوسل ونتشفع أن تزكي فينا شيئاً من إيمانك وشجاعتك وحبك لنشهد حسناً وقت ما تلح علينا الشهادة ولا نرتعب ولا نخور ولا ننثني حتى إلى الموت!!

(٩)



فلسفة الموت عند شهداء مصر



قد يظن البعض أن الشهيد حينما يواجه حكم الموت يفقد فلسفته في الحياة ودعابتها المقدسة ــ إن صح هذا التعبير ــ كأن يتجهم مثلاً و يصِرُّ بأسنانه و يضيق ذرعاً بمضطهديه. ولكن أمامنا تسجيلاً للمؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري عن شهداء مصريين في أيام اضطهاد مكسيمينوس (في القرن الرابع)، يرفع جداً من مفهوماتنا عن سيكولوجية الشهيد و يوضح لنا قدرة النفس المسيحية التقية على الإرتفاع أيضاً بمفهوم الموت من أجل الإيمان بالمسيح.

ونحن نحسب هذه القصة من روائع الأدب الإستشهادي، بل هي في الواقع نموذج صالح يلهمنا السلوك والتصرف، إذا جدَّ الجد و وُهبنا وقوف المخاطر و واجهنا الموت إكراماً لإسم الفادي وتقديساً لحق الإيمان.

يقول يوسابيوس:

[كانوا كلهم أثني عشر، فقد شاءت النعمة أن يكونوا شبيهين بعدد الرسل. كان رئيسهم بمفيليوس ــ وهو عزيز عليَّ جداً ــ هو الوحيد بينهم الذي أُكرم برتبة القسوسية في قيصرية، وقد اشتهر بكل فضيلة كل أيام حياته، فقد نبذ العالم واحتقره بعد أن أشرك المحتاجين في ممتلكاته. إذ كان قد ازدرى بكل الأمجاد الأرضية وعشق الحياة النسكية، وفاق الجميع في عصرنا بصفة خاصة من جهة درايته بالأسفار المقدسة، والجهد الذي لا يكِلُّ في كل ما يُعهد به إليه ومساعدته للمقربين إليه ومعارفه.

وقد ظل مع زملائه المسجونين في سجن قيصرية سنتين، وفي تلك الأثناء وصل إلى أبواب قيصرية بعض الإخوة المصريين، الذين كانوا متغربين في كيليكية يعملون في مناجمها. وعند مدخل أبواب قيصرية سألهم الحراس عن شخصيتهم وعن جنسيتهم

وديانتهم، فأجابوا بالصدق أنهم «مسيحيون مصريون». فقبض عليهم الحراس كأنهم مجرمون متلبسون بجريمتهم، وكانوا خمسة!

ولدى مثولهم أمام الطاغية أظهروا منتهى الجرأة، فزجوا بهم في السجن في الحال، وفي اليوم التالي قُدموا إلى القاضي مع الإثني عشر الفلسطينيين أي بمفيليوس ورفقاؤه السابق ذكرهم.

وابتدأ القاضي باختبار ثبات المصريين الذين لم يلينوا إزاء أنواع التعاذيب العديدة. وعندما سأل زعيم المصريين عن اسمه أعطاه اسم نبي بدلاً من اسمه. لأنه جرت العادة بينهم تلقيب أنفسهم بأسماء أنبياء غير أسمائهم الوثنية التي كانوا قد تسمُّوا بها بواسطة والديهم، فكنت تسمعهم يلقبون أنفسهم: إشعياء، إرمياء، إيليا، صموئيل، دانيال، مظهرين أنهم في الحقيقة ليسوا بالأعمال فقط هم لله، بل بالأسماء أيضاً التي حملوها.

ولكن لمَّا سمع فرمليانوس اسماً كهذا لم يفهم قوة المعنى من ذلك، فسأله عن اسم مملكته، فما كان من الشهيد إلا أن أعطاه جواباً آخراً مثل الأول قائلاً إن أورشليم العليا هي وطنه قاصداً بذلك قول بولس الرسول: «وأما أورشليم العليا أمنا جميعاً فهي حرة» (غل٤ : ٢٦)، وأيضاً: «قد أتيتم إلى جبل صهيون وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية.» (عب١٢ : ٢٢)

ولكن لأن القاضي كان يظن في الأرضيات، سعى باجتهاد أن يعرف أي مدينة هي هذه؟ وأين موقعها من العالم؟ ولجأ إلى التعذيب ليعرف الحقيقة... وأما الشهيد وكانت يداه مربوطتين خلف ظهره ورجلاه في المقطرة، فردَّ عليه أنه يقول الحق، وإذ سُئل مراراً عن المدينة التي يقول عنها وعن موقعها، قال: إنها وطن للأتقياء فقط ولا يدخلها آخرون، وأنها تقع ناحية الشرق عند مشرق الشمس بعيداً جداً.

وكان يتكلم ــ وهو تحت التعذيب ــ بفلسفة لم يستطيعوا أن يزحزحوه عنها قيد

شـعـرة بـكـل الـتعذيبات التي أوقعوها عليه. ولم تظهر عليه علامات الإنقباض أو الشعور بالآلام.

وإذ تحـيَّـر الـقاضي جداً لم يطق صبراً، ظاناً أن المسيحيين معتزمون تأسيس مدينة في مـكـان ما معادية للرومانيين، فاستعلم كثيراً عن هذا وسأل بإلحاح أين توجد تلك البلاد التي في الـشـرق؟! وقد مزَّق جسم الشاب بجلدات قاسية، وعذبه حتى يكشف له الأمر، ولكنه لم يتزحزح عن إصراره على أقواله حتى مات!!!](١)

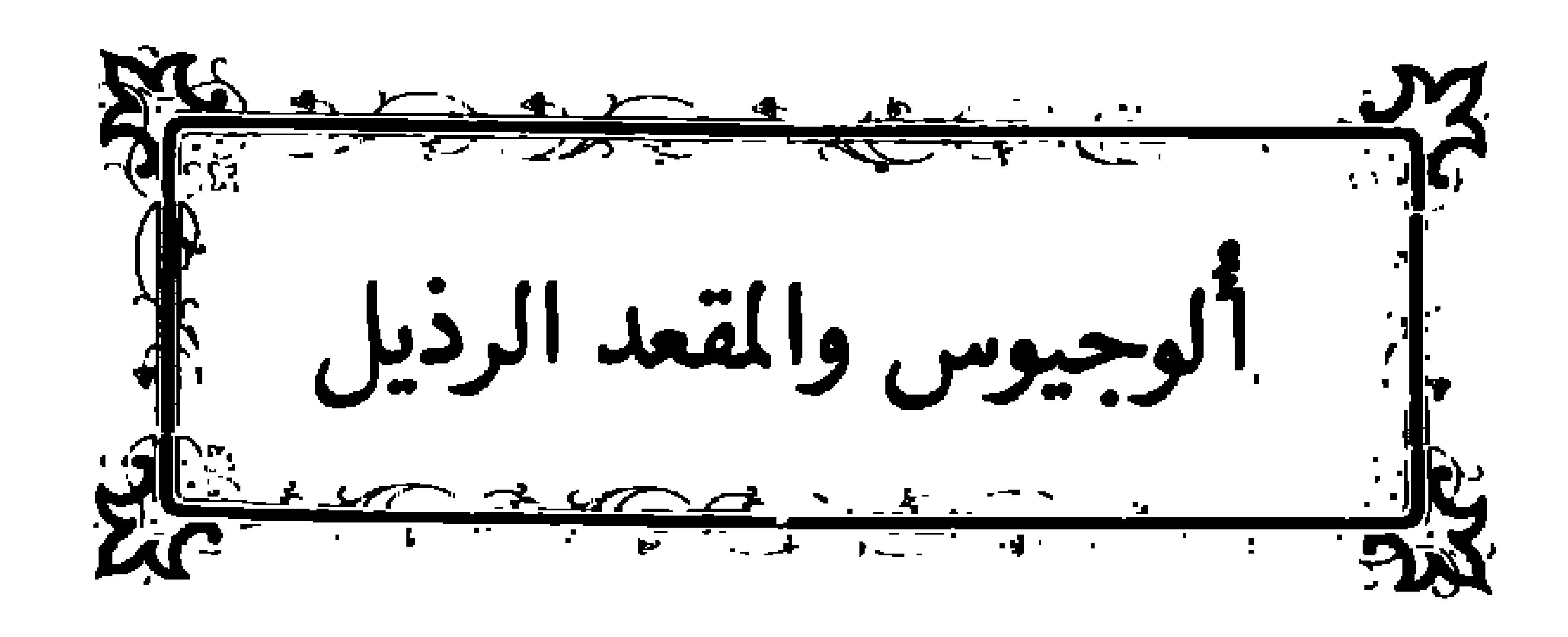
□□□

- سلام لـك أيها الـشـهـيـد المداعـب، وسـلام لنفسك الرزينة الواثقة من مسيرها ومن مقصدها!
- سلام للروح التي استطاعت أن تسخر من المحنة وتسمو فوق تعذيبات الموت لتنطق بكلمات الصحو الروحي وهي في آخر لحظات الإنطلاق!
- وسـلام لـكـل جروحك ولكل رضوضك، ولكسرك ونزيفك ودمك، لأنها صارت إلهاماً لنا للثبات؛ ودافعاً ملحًّا لركوب الصعاب!



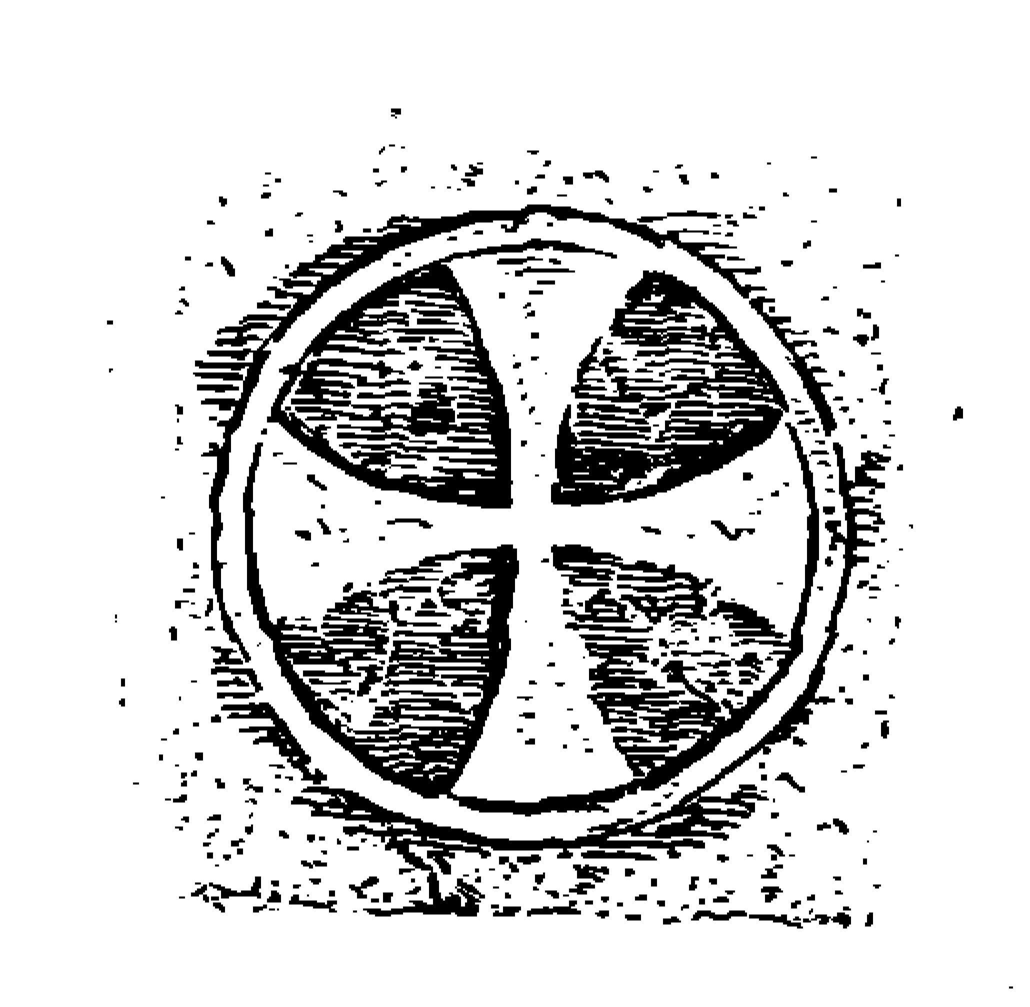
(١) عن كتاب: «شهداء فلسطين»، للمؤرخ يوسابيوس القيصري، الفصل الحادي عشر.

(١٠)



ألوجيوس والمقعد الرذيل

قصة واقعية يتصادم فيها الحنان مع الجحود،
فينتصر الحنان في صبر منقطع النظير



قال پالليديوس:
قص عليَّ المغبوط كرونيوس قسيس نتريا هذه القصة:

[حدث ذات يوم عندما كنت بعد شاباً، أني هربت من الدير دون أن يعلم أبي المتوحد، وذلك بسبب اشتداد الضجر عليَّ، وساقتني قدماي في تجوالي بعيداً حتى أتيت إلى جبل القديس أنطونيوس ــ في المكان الواقع بين «بابليون» (فسطاط مصر) و«هرقليا» (شرق أبو صير مديرية بني سويف)، وهو الجبل الذي يطلُّ على الصحراء الكبرى الممتدة حتى البحر الأحمر ثلاثين ميلاً من نهر النيل.

وعندما وصلت إلى الدير ــ وكان بالقرب من النيل في «بسبير» (بشبير الآن) ــ وجدت تلميذَي القديس أنطونيوس، مكاريوس وأماثاس، وهما اللذان بقيا مع القديس حتى استودعا جسده التراب. وقد مكثت في الدير خمسة أيام في انتظار مقابلة القديس أنطونيوس.

وقد قال لي إنه يأتي إلى الدير ليلقي حديثاً على الإخوة كل عشرة أيام، وأحياناً كل عشرين يوماً وأحياناً أخرى ربما يكون كل خمسة أيام، وذلك بحسب ما يرشده الله. وضمناً كان يصنع خيراً للإخوة الذين ينزلون ضيوفاً على الدير، إذ كان يجتمع هنا إخوة من أماكن متعددة ذوو حاجات مختلفة.

وفي ذات مرة كان موجوداً بين هؤلاء الإخوة، أخ إسكندراني يدعى «أُلوجيوس» من متوحدي الإسكندرية مع آخر مُقْعَد. أما سبب مجيئهما فكان كالآتي:

قصة أُلوجيوس مع المقعد:

كان أُلوجيوس هذا رجلاً مثقفاً بعلوم الدنيا وكان منغمساً في الملذات، ولكنه إذ أحس بغرور الدنيا باع كل شيء وأبقى لنفسه قليلاً من المال لمعيشته، لأنه كان لا يتقن

صنعة. وإذ كان لا يرغب في معيشة الجماعات، فضَّل أن يحيا بمفرده. و بينما كان ماراً بسوق المدينة رأى رجلاً مُقعَداً ليس له يدان ولا رجلان، لا يملك إلا لسانه يستعطف به المارة.

وعندما رآه ألوجيوس وقف يتأمله أمام الله متعهداً:
ــ سيدي الرب إكراماً لإسمك سآخذ هذا المقعد وأخدمه وأعتني به حتى الموت، عساي أيها الرب الإله أن أخلُص بسببه، فاسمح وامنحني أن أحتمل هذا العبء!!

ثم اقترب من المُقعَد وقال له:
ــ أتحب يا سيدي أن آخذك إلى بيتي وأعتني بك؟
فأجابه المقعد:
ــ نعم بكل تأكيد!...
فقال ألوجيوس:
ــ إذن انتظر حتى آتيك بدابتي...

وذهب واستحضر بغلة وأركبه وأخذه وأسكنه غرفة ضيافته الخاصة، و بدأ يعتني به.

وهكذا عاش المقعد خمسة عشرة سنة، وألوجيوس يعتني به، يغسله ويهندمه ويخدمه بيديه و يقوم بكل حاجاته!...

ولكن بعد هذه السنين الخمس عشرة، طغاه الشيطان وجعله يقاوم ألوجيوس و يقارعه ويهينه و يشتمه بأقبح الألفاظ، وزاد أيضاً باتهامات كاذبة وإثارات جارحة، فكان يقول لألوجيوس:
ــ أيها القاتل الهارب من ضميرك، أنت تصرف عليَّ من أموالك المغتصبة وتود أن تخلُص على حسابي؟! إرجعْ بي إلى السوق من حيث أخذتني، أنا أشتهي أن آكل لحماً...

فحاول ألوجيوس أن يطيِّب خاطره واشترى له لحماً حسب شهوته... فعاد يقول:

ـ أنا هنا زهقان وأريد أن أعيش وسط زحام الناس، أنا أشتهي الجلوس في السوق. هل تريد أن تبقيني هنا بالقوة؟ خذني إلى الموضع الذي وجدتني فيه!!

وزاد في تعنيفه لألوجيوس حتى كأنه يريد أن يضربه لولا أنه لا يملك لا يدين ولا رجلين!...

أما ألوجيوس فذهب إلى النُّسَّاك والمتوحدين الذين بجواره يسألهم: «ماذا أعمل بهذا المقعد الذي جعلني في يأس من أمري؟... هل أُخلي سبيله وأرميه في السوق كما كان، وأنا قد أخذت عهداً على نفسي وأخاف الله؛ أم أني أُبقيه وهو يزعجني بهذا الحال؟»

فأجابه الشيوخ جميعاً: «كما يقول لك «كبيرنا» إفعل، فهو لا يزال يعيش (ويقصدون بهذا اللقب القديس أنطونيوس، أي أنهم لا يستطيعون أن يعطوه مشورة وأنطونيوس حيّ). خذ المقعد معك في مركب واذهب به إلى الدير وانتظر حتى يأتي «الكبير» من مغارته إلى الدير واطرح الأمر أمامه، ومهما قال لك اتبع مشورته، لأن الله سيتكلم لك على لسانه».

فخضع ألوجيوس لمشورتهم ووضع المقعد في مركب نهرية وأبحر جنوباً إلى الدير الذي يسكنه تلاميذ أنطونيوس...

□□□

وحدث أن أتى الأب الكبير في المساء ثاني يوم في وقت متأخر جداً من الليل، ملتفاً برداء من الجلد، كما أخبرني كرونيوس.

ومن عادة الأب أنطونيوس عند دخوله الدير أن يسأل تلميذه مكاريوس: «هل أتى أحد من الإخوة؟»... فإذا كان قد حضر أحد يعود فيسأله: «من مصر أم من أورشليم؟»، لأن الأب كان قد أعطاه هذه القاعدة للتمييز: «إذا كانوا إخوة من الدوّارين المتهاونين تقول: من مصر، أما إذا كانوا قديسين ونشطاء ذوي إفراز تقول: من

أورشليم (أي سمائيين)» !...

فلما دخل الأب الدير سمعناه يسأل تلميذه: «هل الإخوة من مصر أم من أورشليم؟» فأجابه تلميذه: «خليط»!

وكان الأب الكبير قد اعتاد إذا كان الإخوة من «مصر» أن يبادر بقوله: «جهز لهم العدس وأصلح لهم المائدة ليأكلوا»، و يصلي عليهم صلاة و يستودع منهم ويخرج (من المضيفة). أما إذا كان الإخوة من «أورشليم» فإنه يجلس معهم طول الليل يتكلم معهم من أجل خلاص النفس!

أما في هذه الليلة ــ فيقول كرونيوس ــ أنه دعانا وجلس معنا دون أن يسأل أي واحد منا عن اسمه. و بعد مدة سمعناه ينادي بيننا: «ألوجيوس، ألوجيوس، ألوجيوس»... وألوجيوس متعجب وصامت لا يرد، معتقداً أنه ينادي ألوجيوس آخر!!... وإذا بالقديس يشاور على ألوجيوس و يقول له: «أنا أقصدك أنت يا إسكندراني!»... ثم سأله: «ما الذي دعاك إلى المجيء إلينا؟»

فأجاب ألوجيوس: «الذي أعلمك بإسمي هو يقول لك مسألتي»!
فرد عليه القديس: «أنا أعلم لماذا أتيت ولكن أخبر الإخوة حتى يسمعوا كلهم»!!
فابتدأ ألوجيوس يتكلم:

ألوجيوس يسرد قصته، والأب الكبير يتكلم:

ــ «لقد وجدت يا أبي هذا المقعد في موضع السوق، وكان أن تحننت أحشائي فأقسمت بعهد أمام الله أني آخذه عندي وأعتني به حتى أخلُص بسببه، ولعله هو أيضاً يخلُص بسببي!... ولكن بعد هذه السنين الطويلة بدأ يزعجني و يتعب نفسي حتى فكرت في نفسي أن أخلي سبيله، لهذا جئت إلى قداستك حتى تنصحني بماذا أتصرف، ولكي تصلي عليَّ، لأني حزين وفي مرارة نفس».

فابتدأ أنطونيوس يخاطبه بحدة وعبوسة: «تريد أن ترميه؟... ولكن الذي خلقه لن يرميه!... وإن رميته فالله سيقيم إنساناً آخر أكثر حناناً منك فيقبله و يضمه إليه»!

أما أُلوجيوس فظل ساكتاً، خائفاً من الكلام...

ثم التفت القديس إلى المُقعد وابتدأ يعنفه بكلام لاذع أشد من السياط:

ــ نعم أيها الإنسان المقعد، أليس أنك تبدو بأعمالك هذه غير مستحق للسماء ولا الأرض أيضاً؟... لماذا لا تكفُّ عن مقاومة الله؟... ألا تعلم أن المسيح هو نفسه الذي يخدمك الآن؟... أليس أن أُلوجيوس قد جعل نفسه خادماً لك من أجل المسيح؟... أتجرؤ أن تتكلم بهذه الشتيمة والكلمات الصعبة ضد المسيح؟...

وكان القديس جافياً جداً من نحوه، ثم سكت، وأدار الحديث مع باقي الإخوة متكلماً فيما يهمهم ومجيباً لحاجاتهم. ثم عاد يوجه الحديث لأُلوجيوس والمقعد معاً:

ــ لا تتأخرا كثيراً هنا، رتِّبا سفركما، ولا تنفصلا عن بعضكما، بل عيشا معاً باتفاق في القلاية التي عشتما فيها هذه السنين الطويلة؛ فالله أرسل يطلبكما، وهذه التجربة أصابتكما لتعويق خلاصكما وأنتما في نهاية الطريق والموت على الأبواب وإكليلكما مهيّأ، وقد قُضي لكما بلبسه عن استحقاق. فلا تتعوقا، قوما وامضيا حتى لا يجدكما الملاك هنا عند مجيئه فهو على الأبواب...»

فقاما مسرعين ورتبا سفرهما عائدين إلى قلايتهما، وفي غضون أربعين يوماً مات أُلوجيوس ولحقه المقعد بعد ثلاثة أيام!...

□□□

و يقول كرونيوس:

إنه تعوَّق قليلاً في الصعيد في المناطق العليا ثم ارتد راجعاً إلى ديره بالإسكندرية، فوجد الإخوة هناك يعملون تذكار الأربعين لأُلوجيوس الطاهر، و بعد ثلاثة أيام عملوا الأربعين للمقعد.

فلما شاهد كرونيوس ذلك تعجب جداً وأخذ الإنجيل المقدس ووضعه في وسط الإخوة، وأخبرهم بكل ما حدث قائلاً:

ــ «أنا كنت المترجم في الحديث الذي دار بين القديس أنطونيوس وألوجيوس، لأن القديس لا يتكلم اليونانية، ولأني أتكلم اللغتين كنت أفسّر الكلام، فلهذين الإثنين كنت أترجم إلى اليونانية وللقديس كنت أترجم إلى اللغة المصرية»، وقص عليهم كل ما حدث!...

□□□

• هذه القصة حقيقية ولكنها تكاد تنطبق رمزياً مع واقع النفس البشرية الكسيحة اللئيمة والمسيح الطيب المبارك:

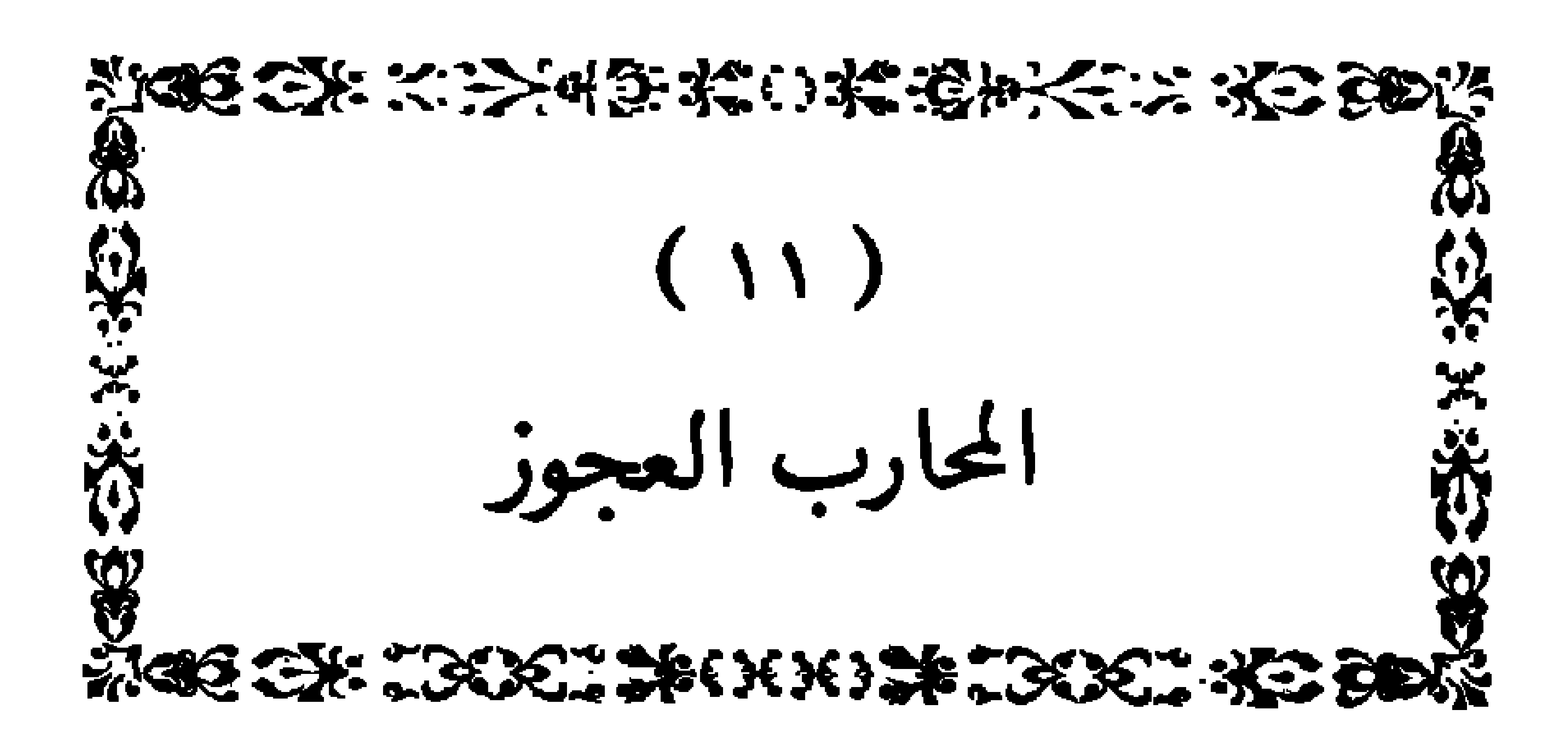
• فالمسيح تبارك اسمه (ألوجيوس يعني مبارك) وجدنا في سوق العالم لاهين عن بؤس حالنا بعد أن قطعت الخطيئة والأنانية قدرة اليدين على عمل الخير وقدرة القدمين على السير في طريق البر، فانطرحنا في سوق العالم ولنا منظر العاجزين وجلسنا نستعطي من أفضال العالم، والعالم دائماً يكرم المنطرحين تحت أقدامه!! وإذا بدت لنا غنيمة يمكن صيدها من أيدي العظماء أو البسطاء بدأنا نتكلم بالطيبات الناعمات وندعو باللسان ونتملق ونلف وندور ونتصاغر، حتى إذا حصلنا على الخير باسم الرحمة أو باسم القداسة والبر بددناه في شهوتنا!... «والمياه المسروقة دائماً حلوة، وخبز الخفية لذيذ» هكذا يقول سفر الأمثال، ولكنه ماء معطش وخبز مسموم!... لأن الله جل اسمه قال لآدم: «تأكل خبزك بعرق جبينك»، ولم يقل له أن يأكله بإراقة ماء الوجه!!

• والمسيح الصالح من أجل أحشاء تحننه لا يطيق أن يرى الإنسان في ذُلَّة، فتقدم وتفاوض مع النفس أن يتكفل بها ووعدها أن يُلبسها البربيديه أفضل من سليمان في كل مجده!! وارتضت النفس بمحض اختيارها أن تسكن معه

وتأكل من غناه ورحمته وتتكرم بكرامته. لذلك، فليس لها عذر البتة أن تشتهي لحم النجاسة بعد أن ذاقت خبز البركة، ولا يليق بها أبداً أن تطلب العودة إلى طين الأسواق بعد أن تشرفت بالسكنى مع الروحيين، أما وأن تذمَّ راحمها وتتخاصم معه وتهينه وتفضحه لأنه لم يعطِها شهوتها الأولى، فقد دلَّت بذلك كما قال «الكبير» أنها غير أهل للسُّكنى لا مع السمائيين ولا مع الأرضيين!!

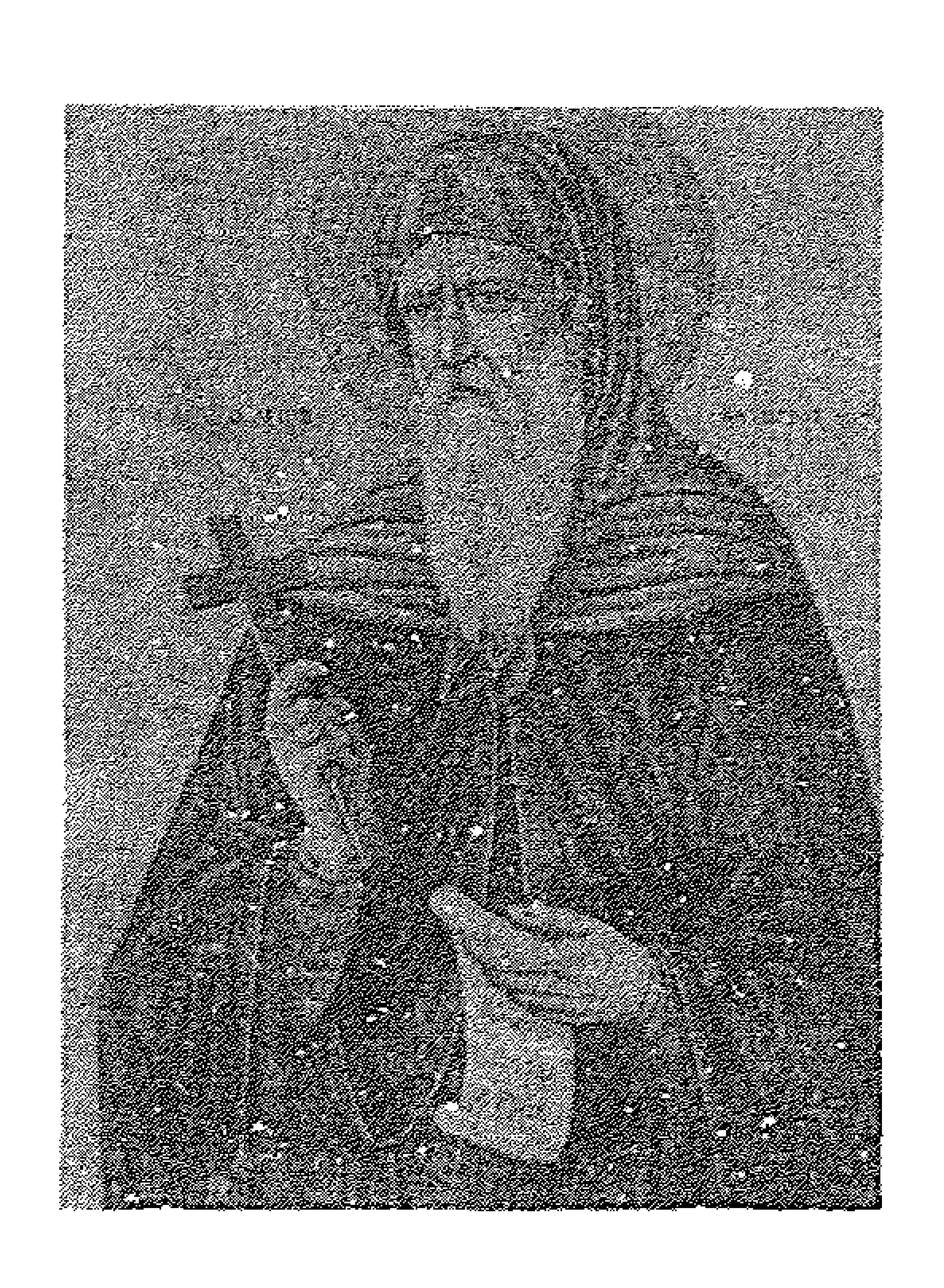
ولكن راحمها لا يزال يتشبث بسكناها ولا يريد أن يخليها سراً من أجل الكلمة التي خرجت من فمه والعهد والقسم الذي قسمه! فما كان منه بعد أن ضاقت نفسه برذالة تلك النفس، وهو الطيب الذي لا يستطيع أن يخاصم أو يصيح أو ينزل ناراً من السماء أو يدين، إلا أن يأخذ النفس في مركب في رؤيا الليل، والناس نيام، ويحضرها أمام أبيه ليحكم بينه وبينها فبدا الآب معبساً شديد الوطأة أرعب النفس متوعداً إياها بالقطع الأبدي، وهددها أن يشقها شقاً إن هي تمادت في إهانة آبنه، أو فضَّلت تسلية السوقة على رزانة العبادة، أو إن هي أقامت على شهوة الدنيا واحتقار الإكليل، كما أوصى الآب (الكبير) آبنه أن يطيل أناته عليها هذه السنة أيضاً، لأن الوليمة قد أُعدت والوقت قريب...

يا إخوة، إن هذه القصة عبرة لكل من ذاق مراحم الرب ...



(١١)

المحارب العجوز



القديس العظيم أنبا أنطونيوس

يحدثنا پالليديوس المؤرخ الآبائي المشهور عن محارب عجوز، يذكِّرنا بيعقوب إسرائيل الذي صارع مع الله وغلب، وهذا الطوباني هو بولا الفلاح البسيط(1) الذي صارع مع القديس أنطونيوس حتى اضطره أن يقبله راهباً بل ونِدًّا له، وبعد أن صمم أنطونيوس بكافة الطرق أن يرفضه... لذلك أصبح بولا نموذجاً رائعاً لمفهوم اغتصاب الملكوت!

قال پالليديوس:

كان يوجد رجل فلاح بسيط وبريء في طباعه أكثر من كافة بني الناس، اسمه بولا... وكانت له زوجة جميلة، ولكنها كانت شريرة وخبيثة في أعمالها وسلوكها، وكانت قد زاغت من ورائه مدة طويلة وهي عائشة في الخطيئة...

وفي ذات يوم، عاد بولا من الحقل فوجدها مع إنسان في ذات الفعل، وكان هذا بمثابة تحريك من النعمة ألهب قلب بولا لكي يسلك طريقاً أفضل! فلما دخل عليهما سخر منهما، إنما برزانة وعفة، قائلاً: «طيب طيب، صحيح ما هياش ليَّ وأنا كمان مش لها!... وحياة يسوع من الوقت ما هاعرفها تاني... قم خذها لك هي وعيالها، أما أنا فهاروح واترهبن...»

ودون أن ينطق ببنت شفة لأحد قط، انطلق مسافراً وحده وقطع ثمانية فراسخ حتى بلغ قلاية مار أنطونيوس الكبير... فلما دق الباب، خرج إليه أنطونيوس سائلاً:

ـــ ماذا تريد؟

فأجابه بولا: أريد أن أصير راهباً...

فرد عليه مار أنطونيوس: أنت رجل عجوز، وعمرك ثمانون سنة، ويستحيل عليك

---

(1) بولا البسيط تلميذ مار أنطونيوس هو طبعاً غير بولا أول السواح المعتبر أباً للقديس أنطونيوس.

أن تصير راهباً هنا. إذهب إلى الريف واشتغل هناك لمعيشتك وآشكر الله أيضاً أنك غير كُفء لتحمل أتعاب الصحراء.

ولكن مرة ثانية أجاب بولا: كل ما تشاء أن تعلّمه لي أنا مستعد أن أعمله!...

فرد عليه مار أنطونيوس: قد قلت لك إنك رجل عجوز وإنك لا تستطيع أن تعمل هنا، فإن كنت تريد أن تصير راهباً إذهب إلى أي دير واسكن حيث يسكن الإخوة حتى تجد من يحتمل ضعفك وأمراضك. أما أنا فأسكن وحدي هنا وآكل مرة كل خمسة أيام، وحتى هذه الأكلة لا آكلها كاملة!...

وبهذه الكلمات وغيرها حاول أنطونيوس أن يخيف بولا...

ولكن بولا لم يقتنع أبداً ولم يخف ورفض أن يذهب... فما كان من مار أنطونيوس إلا أن دخل قلايته وأغلق الباب على نفسه ثلاثة أيام، و بسبب أنه يعلم أن بولا على الباب، لم يخرج قط من القلاية هذه الثلاثة أيام حتى ولا لقضاء حاجة الطبيعة.

ولكن بولا لم يتزحزح من على الباب!

وفي اليوم الرابع لما اضطرته حاجة الطبيعة، فتح أنطونيوس الباب وخرج فانتهر بولا قائلاً:

ـ إذهب من هنا أيها الرجل العجوز لماذا تضايقني؟ مستحيل أن أجعلك تسكن هنا...

فأجابه بولا بحزم: وأنا مستحيل عليَّ أن أموت في موضع آخر إلا هنا!...

فلما تفحصه أنطونيوس جيداً و وجد أنه لا يحمل معه أي زاد لا خبزاً ولا ماءً! وأنه أمضى هذه الأربعة الأيام صائماً بدون أكل أو شرب؛ قال في نفسه: «لربما إن مضى يقع ويموت و يُدخل نفسي في مصيبة». فقبله وأدخله القلاية.

وابتدأ أنطونيوس يباشر أعمالاً نسكية شديدة وصارمة لم يمارسها حتى ولا في أيام شبابه وذلك كله بسبب بولا...

ونـقـع بـعـض الخوص في الماء وأعطاه لبولا قائلاً: «خذ هذا الخوص واعمله حصيرة كما أعـمـل أنـا تـمـامـاً». فـأخـذ الـرجـل العجوز الخوص وابتدأ يعمل حصيرة بلغ طولها ١٥ ذراعـاً، حتى إذا بـلـغـت الـسـاعـة الـتـاسعة (الثالثة بعد الظهر) كان بولا قد أخذ به التعب كل مأخذ.

فلما راجـع أنـطونيوس ما قد عمله بولا غضب عليه وانتهره قائلاً: «شغلك مفكوك لا ينفع، حِلُّه كله واعمله تاني بإتقان وجمِّد عليه»...
فـحـل بـولا كل الحصيرة وعملها من جديد ولكن بدت الحصيرة مفككة أكثر بسبب أن الخوص تلف من الربط والفك...

كـل هـذا و بولا صائم طول هذه الأيام. وأنطونيوس زاد عليه بهذه المشقات، وكانت نفس أنطونيوس منفعلة بالغضب عليه حتى يقرف و يرحل عنه...

ولـكـن لما رأى أنـطونيوس أن بولا لم يغضب قط ولا تململ ولم يَبْدُ منه أي شكوى، تحنن عليه وفاضت شفقته...

وهـكذا، و بعد أن أمضى بولا هذا اليوم أيضاً، قال له أنطونيوس: «أتريد أن تأكل لقمة خبز؟» أجابه بولا العجوز: «حسب مسرتك يا أبي!»
وهـذا أخـجـل أنطونيوس بالأكثر، لأن الرجل لم يسرع في إبداء رغبته لدعوة الأكل، بل جعل كل رغبته رهن إشارة أنطونيوس نفسه!

حينئذ قال له أنطونيوس: «أعدَّ المائدة وأحضر الخبز».

ووضـع أنـطـونـيوس أربع خبزات كل منها يزن ست أوقيات بعد أن غمسها في الماء لأنها مقددة، جاعلاً خبزة واحدة أمامه وثلاث خبزات أمام بولا.
و بـعـد أن وضعهم ابتدأ يرتل مزموراً من حفظه اثني عشرة دفعة مع اثني عشرة صلاة، وكـان هـذا لـتـجـربـة بـولا ولكن بولا شاركه الصلاة بفرح. و بعد الصلاة جلسا ليأكلا

وكان قد أزف المساء!

وانتهى أنطونيوس من رغيفه بينما كان بولا لا يزال يأكل رغيفه ببطء، وظل أنطونيوس ينتظره... فلما فرغ من أكله، بادره أنطونيوس: «أيها الأب الصغير ألا تريد أن تأكل رغيفاً آخر؟»

فأجابه بولا: «إن شئت أن تأكل أنت رغيفاً آخر شئت أنا أيضاً، فإذا لم تشأ أنت فأنا أيضاً لا أشاء».

فأجابه أنطونيوس: «لقد أكلت كفايتي لأني راهب».

فرد عليه بولا: «وأنا أيضاً أكلت كفايتي لأني أريد أن أصير راهباً».

وبعد هذا انتصب أنطونيوس وصلى أثنتي عشرة صلاة، ولما فرغوا من تلاوة المزامير معاً أثنتي عشرة دفعة ناموا فترة قصيرة، ثم قاموا وظلوا يُسبِّحون ويصلون حتى الصباح.

فلما رأى أنطونيوس أن هذا العجوز استطاع أن يمارس نفس الحياة التي يحياها هو بنظامها وترتيبها قال له: «إن كنت تستطيع أن تحتمل أن تعبر كل يوم بمثل هذا النظام يمكنك أن تمكث معي»...

فأجابه بولا: «ولو إني لا أعرف شيئاً عما يكون، ولكني كل ما أتعلمه أستطيع أن أعمله بسهولة».

وبعد عدة أيام قال له أنطونيوس: ها قد صرت راهباً.

ثم بعد عدة شهور، عندما رأى أنطونيوس أن نفس هذا العجوز كاملة أمام الله وأن بساطته قد فاقت كل الحدود وأن النعمة الإلهية كانت تؤازره، بنى له قلاية على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال قائلاً: «هوذا أنت قد صرت راهباً وينبغي عليك من الآن أن تسكن وحدك حتى تتحنَّك بتجارب الشياطين».

وبعدما سكن بولا وحده مدة سنة، حلت عليه موهبة الشفاء، وموهبة إخراج الشياطين.

وحدث في هذه الأيام أن جاءوا لأنطونيوس بإنسان به روح نجس غاية في الشراسة، لأنه كان أحد رؤساء الشياطين، وكان من الرذالة إلى الدرجة التي كان فيها يجدف ويجحد السموات.

فلما رآه أنطونيوس قال: «أنا لا أستطيع أن أُبرىء هذا الإنسان لأني لم أُعطَ لا القدرة على الإبراء ولا موهبة إخراج مثل هذه الرؤساء المَردَة، لبولا وحده أُعطيت موهبة شفاء هذا الإنسان».

فأخذه أنطونيوس مع الذين معه وتوجه إلى بولا قائلاً:
ـــ «يا أبا بولا إخرج الشيطان من هذا الإنسان حتى يعود صحيحاً إلى بيته».
فرد عليه بولا: وماذا تعمل أنت؟
فقال له أنطونيوس: «أنا لا أستطيع أن أخرجه، ولي عمل آخر أعمله». وترك الرجل مع بولا ومضى إلى قلايته.

فنهض بولا وصلى صلاة بقوة وعطف كثير، ثم التفت إلى الشيطان وقال له: «أبي أنطونيوس قال أُخرج من هذا الإنسان»...
فأجابه الشيطان بشتيمة وتجديف قائلاً: «أنا لن أخرج، يا من تأكل الخبز الأبيض»...

فخلع بولا المنطقة وضرب بها على ظهره وجنبه قائلاً: «أنا أقول لك إن أبّا أنطونيوس قال أخرج منه»...
فابتدأ الشيطان يلعن و يشتم أبّا أنطونيوس و بولا أيضاً...
وأخيراً، قال له بولا: «أُخرج وإلا سأذهب وأقول للمسيح يسوع. وأنا إذا قلت للمسيح فسوف تصيبك مصيبة عظيمة».
ولكن الشيطان ظل يجدف و يقول: «لن أخرج»...

فغضب الطوباني بولا جداً على الشيطان وخرج من قلايته ـــ وكان الوقت ظهراً

والـصيف في هذه الساعة في مصر كأتون بابل ــ و وقف على صخرة وصلى وتكلم قائلاً: «أنظر يا يسوع المسيح يا من صُلبت على يدي بيلاطس البنطي، أنا لن أنزل من على هذه الـصخـرة ولـن آكـل ولـن أشـرب حتى أموت إذا لم تُـخرج هذا الروح النجس من هذا الإنسان وتخلِّصه منه».

و بـينما الـكـلـمـات لا تـزال على شـفتي بولا، صرخ الشيطان كما من عِظَم ألم أصابه وقـال: «وحـياة هركيولس الذي يحكمني، وحياة هركيولس، أنا مرغم بالقوة لأن بساطة بولا تعتسفني وتطاردني ــ إلى أين أذهب!!» فقال له بولا: «إلى أعماق الجحيم»!

فخرج الشيطان للوقت من الرجل وصارت هيئة الشيطان كتنين ضخم سبعين ذراعاً أو يـز يـد، وأخـذ يـتـلـوى حتى غـطـس في الـبـحـر الأحـمـر. فتم الـقـول إن «الإيمان ينقل الجبال».

وظفر بولا بالشيطان، بولا العجوز المدعو من كافة الإخوة بالبسيط!

□□□

• حياة بولا الرجل العجوز مُبكِّتة جداً يا إخوة...

• مبـكـتة للرجال الذين حينما تصدمهم الدنيا يرتدون إلى خلف. فبولا فُجع في خـيـانـة زوجـتـه؛ فـلـم يَـثُـر ولم يهدد ولم ينتقم ولم ييأس، بل سخر من هذه الـكارثة ووطأها بقدميه وجعلها منطلقاً جديداً لحياة أسمى... فاستعاض عن الزوجة الخائنة بملكوت الله!!

• مُبكِّتة جداً للشباب الذين تقعدهم خشونة الطريق عن السعي المقدس. فـبـولا جاز أشق الإختبارات وسخر من كل العراقيل التي وُضعت في طريقه لأنه صمم أن يخلِّص نفسه فلم يحسب حساب الأتعاب...

أمـا الـشـبـاب الـيـوم فـيـسألون عن الطريق السهل، و يفضلون الكلام الـناعم، ويميلون إلى تأمين الحياة المريحة، ويجرون وراء المشجعات، ولو كانت

على حساب الرجولة...

• مُبكِّتة جداً للرهبان الذين استوطنوا الأسوار، وألفوا الطعام المطهي، والثياب الناعمة، والنوم المريح، وقَصْر الصلوات على الساعات، وانتظار فرج الوظائف، وتسلية الوحدة بالفُسَح والزيارات...

فبولا عاش منفرداً بعد شهور قليلة من رهبنته وعلى بعد أربعة أميال من مرشده... صائماً دائماً، مطيعاً لأبيه إلى أقصى حد...

• تعجبوا يا إخوة على هذا الرجل العجوز الذي:
اكتسب ثقة القديس أنطونيوس بعد ثلاثة أيام فقط!!
واكتسب استحقاق الرهبنة بعد عدة أيام قليلة...
واكتسب حق الوحدة بعد عدة شهور...
واكتسب رضى المسيح بعد سنة فحلت عليه موهبة النعمة وفعلها...

• ثم تعجبوا كيف استطاع هذا الطائع النشيط أن يصرع رئيساً للشياطين ويدحره ويرغمه على الخروج من جبلة الله بدالة صلاته مع المسيح.

قصة للتوبة:

(١٢)

تاييس ... امرأة الأساطير



يهيم الكتّاب الغربيون والفنانون أشد الهيام بسيرة تاييس التائبة، وقد ألّفوا على سيرتها روايات نالت ذيوعاً وانتشاراً حتى طبّق آسمها الآفاق...
و بالليديوس المؤرخ الآبائي المشهور هو صاحب الفضل أيضاً في الكشف عن هذه الدرة الإسكندرانية الثمينة...

الآن أنا أشتهي أن أقص عليكم طرفاً من تار يخ رائع لتوبة آمرأة آسمها تاييس، وأنا لم أشته ذلك إلا لكون الحديث عن هذه السيرة الفائقة القيمة مملوءاً تشجيعاً ومحفّزاً للتو بة عند كل نفس تحب الله.

هذه المرأة كان لها أم (غبية) رأت بسبب جمال آبنتها أن تعرضها في المحافل لتحظى بما يناسبها من المكانة. فما كان إلا أن انتشر خبر جمالها إلى كل الأرجاء حتى اشتاق كل الناس، والذين على بُعْدٍ أيضاً، أن ينظروا جمال وجهها...

وكان كل من يراها لا يقنع بنظرها، لأن حسنها كان يستقر في قلوب عشاقها كوقيد النار.

وكثيرون بسبب تجننهم بعشقها باعوا كل ما يملكون وأعطوه لأمها ليحظوا بها.
فلما ترامت أخبار هذه الشقية إلى مسامع **القديس بيصار يون**، وكيف أن جمالها جرَّ كثير ين إلى الهلاك، تزيًّا بزي أحد الناس الذين في العالم وحمل معه ديناراً وتوجه إليها. فلما قابلها أخرج ديناره وسلمه إليها، أما هي فلما حصلت على الدينار دعته للدخول...

وعندما دخل مخدعها ــ وكان مكشوفاً ــ ولمح فيه سر يرها العالي المفروش والمزين، قال لها: «ألا توجد غرفة أخرى في الداخل؟»، فسخرت منه وقالت: «إن

كنت تخشى أن يرانا الناس، فاطمئن أنه لن يرانا أحد؛ أما إذا كنت تخشى الله، فالله يرانا في كل مكان» !!

فلما سمع ذلك بيصار يون، اكتشف المدخل إلى قلبها، فبادرها بصوت إلهي حزين كشف عن شخصيته :

ـ يا ابنتي أتؤمنين حقاً أن الله موجود ؟

فأجابته وهي مرتعبة :

ـ نعم أؤمن بأن الله موجود، وأؤمن بملكوته و بالدينونة !...

وحينئذ واجهها القديس :

ـ إن كنتِ هكذا بالله وملكوته ودينونته تؤمنين، فما بالك إذن تجرّين الناس إلى الهلاك بهذه الكيفية ؟...

ولم تتمالك المسكينة نفسها فوقعت على قدميه وقالت :

ـ أنا أعلم أيضاً أنه يوجد توبة لمن يخطىء ! فأتوسل إليك يا سيدي أن تمكث معي إلى ثلاث ساعات وحينئذ سأسلم نفسي إليك فتعمل كل ما تراه بشأني عوض كل الشرور التي صنعتها...

فعين لها القديس المكان الذي يمكنها أن تجده فيه ومضى...

□□□

أما هي فنهضت في الحال وأخذت كل ما اقتنته من الزنا : حلى وأثاث وزينات من كل صنف يقدر ثمنها بذهب كثير، وتوجهت إلى سوق المدينة وأحرقت الكل بالنار، قائلة :

ـ تعالوا يا كل من تاجرتم معي بالإثم، وانظروا فها أنا أحرق بيدي كل ما اقتنيته من الخطيئة .

و بعد ما أحرقت كافة ممتلكاتها، انطلقت إلى المكان المعين فوجدت القديس

بيصاريون في انتظارها، فأخذها بيدها وسار معها حتى سلمها لبيت مُكرَّس لعبادة العذارى وأغلق عليها بيديه في قلاية صغيرة وكانوا يعطونها الطعام من الطاقة ... وأمر بيصاريون الرئيسة أن تعطيها الخبز بمقدار والماء على قدر حاجتها...

ولما سألت تاييس عن نوع التوسلات والصلوات التي تقولها وتصلي بها أمام الله حتى يغفر لها خطاياها، أجابها بيصاريون أن تقول: «يا من خلقتني، إرحمني»، على أن لا تذكر آسم الله بشفتيها لأنها تنجستا، وأن لا تمد يديها أمام الله لأنها غير طاهرتين!!!...

وبعد ثلاث سنوات وهي في محبستها، قلق بيصاريون على خلاصها. ومن رحمته عليها سافر إلى القديس أنطونيوس ليعلم منه عما إذا كان الله قد غفر لها خطاياها أم لا...

فلما أعلم القديس أنطونيوس بسيرتها، استدعى أنطونيوس تلميذه «بولا» وأوصاه كما أوصى بيصاريون أن يسهرا الليل كله في الصلاة. وهكذا صلى ثلاثتهم لدى الله ليروا ماذا سيعلن الله بخصوص الأمر الذي جاء بيصاريون من أجله (ولم يعلم عنه بولا شيئاً).

وبعد مدة طويلة والكل يصلي، رأى الطوباني بولا تلميذ مار أنطونيوس وهو ناظر نحو السماء وإذا شبه كرسي منصوب ببهاء عظيم وعليه إكليل من فوقه. فلما رأى بولا هذا المنظر الجليل قال في نفسه: «هذا كرسي أبي أنطونيوس ما من ذلك شك». وإذا صوت من السماء يرد عليه: «هذا الكرسي ليس لأنطونيوس أبيك وإنما هو لتاييس الزانية»!...

فنهض بولا في الصباح مبكراً، وقص ما رآه.

وعاد بيصاريون من عند الأب أنطونيوس بفرح عظيم وتوجه إلى بيت الأخوات المتعبدات، ولما حاول أن يفتح الباب ــ الذي كان قد سده ــ ليخرج الطوبانية تاييس من عزلتها، توسلت إليه جداً أن يتركها بقية أيام حياتها في محبستها بسبب خطاياها. ولكن لما طمأنها القديس بيصاريون أن الله قد تحنن عليها وقَبِل توبتها رضيت أن تخرج،

وكـانـت تـقـول لـه: «صـدقني يـا أبي أنه منذ اليوم الذي دخلت فيه هذه القلاية جعلت خـطـايـاي كلها كحِمْلٍ وضعته على ظهري وألصقت عيني عليه كالنَفَس الذي لا يفارق أنفي. وهكذا لم تفارقني خطاياي حتى هذه الساعة».

فـأجـابهـا بـيصار يون قائلاً: «إن الله لم يغفر لك خطاياك بسبب توبتك، إنما بسبب الفكر الذي جعلتيه في قلبك أن تهبي نفسك للمسيح».

أمـا هـذه الطوبانية فعاشت بعد توبتها خمسة عشر يوماً وسافرت إلى ربها بسلام حيث تم تلبيسها الإكليل هناك...

هذه هي التي كانت ضالة ووُجدت، وكانت قد ماتت ولكنها أتت إلى الحياة بنعمة يسوع المسيح الذي منه الرحمة والشفقة.

له المجد والكرامة إلى أبد الدهور آمين.

□□□

• قصة تاييس يا إخوة تزيح الستار عن خدعة الجمال الدنيوي الذي يمكن أن يورث الهلاك ... وعن عشق الوجوه الذي يطوح بهامات الرجال ...

• إن سقطة تاييس البارعة الحُسن كفيلة أن تصدم المعجبات بحُسن وجوههن ورشاقة قوامهن وفتنة عيونهن...

• ما أشنع الوجه الجميل حينما يعرض ذاته في عدم حياء، يطلب المعجبين والمادحين والعشاق...

• وما أطهر الوجه الجميل أيضاً، حينما يعرض عن الأنظار من كثرة الحياء ويتحاشى الإغراء والإعثار...

• والجمال هو الجمال، هنا يورِّث الهلاك وهناك يورِّث مجد الله !...

□

• عجبي على هذه الطوبانية التي أسرعت إلى حرق كل ما اقتنته من ثمن الخطيئة كشهادة ناطقة بعزم السيرة الجديدة...

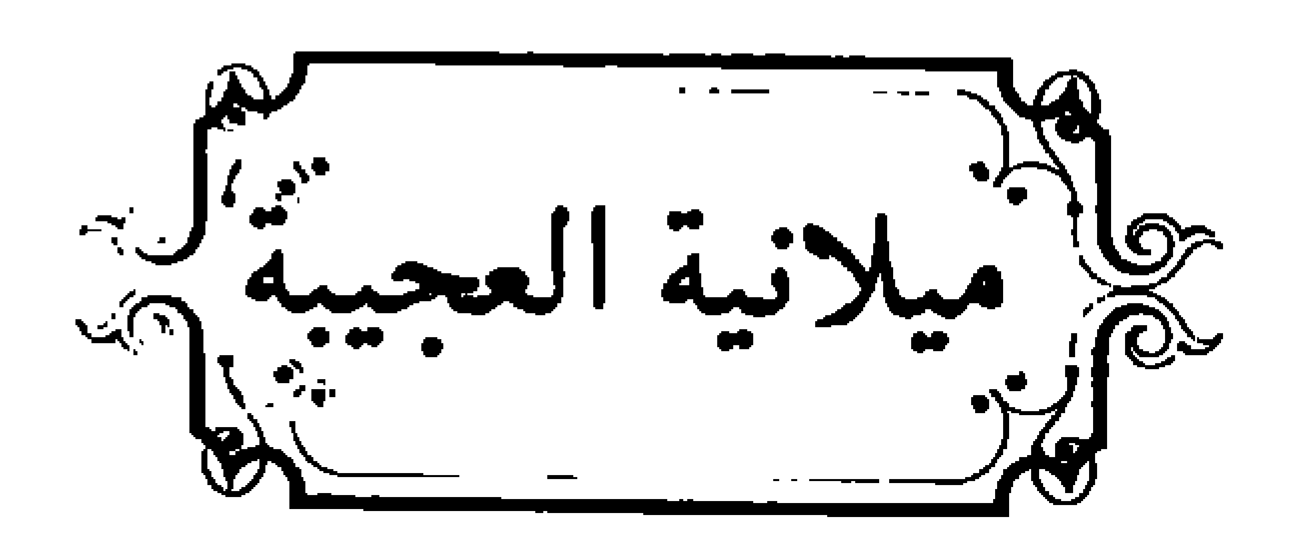
• ثم عجبي على هذه القلاية الضيقة التي صارت لهذه التائبة أوسع من مدينة الإسكندرية، فآثرتها عوض اتساع الدنيا بأسرها عندما اكتشفت فيها سر الخلاص !...

• ثم عجبي على هذا الخبز «الحاف» الذي قبلته زاداً مناسباً للطريق الضيق وما عافته نفسها لأنها أحست فيه الدواء الشافي لجرح الخطيئة !...

• ثم اندهشوا معي على إكليل هذه الخاطئة التائبة الذي فاق إكليل أنطونيوس !...

• وأخيراً... إختموا يا إخوة على هذه السيرة، لأنها سر لا يليق التحدث عنه كثيراً...

(١٣)



جاء في رواية پالليديوس المؤرخ الآبائي المشهور قصة مبدعة عن قديسة أرمله ترملت وهي في سن الشباب، هي ميلانية القديسة الفاخرة الذائعة الصيت، وقصتها حبيبة جداً لنفوس الرهبان والمتبتلين وكل خدام المسيح ومحبي القديسين حتى أن جميع المؤرخين يعطونها الطولى ثلاثاً:

هي أسبانية في مولدها رومانية في تجنُّسها، حفيدة أحد القناصل و يدعى مارسلينوس (كان قنصلاً سنة ٣٤١م). وكانت قد تزوجت بأحد الرجال الأفاضل لا يحضرني الآن اسمه، هذه ترملت وهي في الثانية والعشرين من عمرها وقد كانت من ضمن الذين استحقوا أن يكونوا أثيرين بالحب الإلهي، ولكنها أخفت حبها للمسيح عن الجميع. ولو لم تفعل ذلك لكانت أُوقفت عن سعيها المقدس هذا، لأن ڤالنس كان يحكم البلاد في ذلك الزمان (٣٦٤—٣٧٨م).

عندما كانت ميلانية وصية على ابنها، جمعت كل ودائعها وأموالها وأبحرت مسرعة نحو الإسكندرية مع كثير من النساء الفُضْلَيات، وهناك باعت كل ممتلكاتها واستبدلت ودائعها بعملات ذهبية.

ثم توجهت إلى نتريا (صحراء جنوب الإسكندرية، كانت وطناً للرهبان) وقابلت القديسين پامبو (پموا)، وأرسيز يوس، وسرابيون الكبير، و بافنوتيوس الذي من شيهيت (تلميذ القديس مكار يوس)، وإسيذوروس المعترف، وديوسقوروس أسقف هرمو يوليس (دمنهور)، وأمضت قرابة نصف عام بين النساك تدور في الصحراء تبحث عن القديسين.

وحدث — لما اقتحم والي مصر برية الآباء (لأسباب يعرفها التاريخ؟) — ونفى

إسيذوروس، و بيسيموس، وأديلفيوس، و بافنوتيوس، وبموا، وكذلك أمونيوس باروتس، مع آثني عشر أسقفاً وكاهناً إلى فلسطين بالقرب من نيوقيصرية، أن ميلانية لحقت بهم وكانت تخدمهم من مالها الخاص. وإذ مُنع عنهم الخدم كانت ميلانية في كل مساء تتزيّا بزي عبدة وتحضر لهم حاجاتهم.

وإذ علم والي فلسطين بذلك انتهز هذه الفرصة ليملأ جيبه معوّلاً على ابتزاز أموالها، فألقى القبض عليها وألقاها في السجن غير عالم أنها آمرأة حرة (ولا يصح وضعها في السجن بمقتضى القانون الروماني).

ولكنها أعلمته في الحال بنسبها ونسب زوجها و بأنها خادمة للمسيح، وتوسلت لديه أن لا ينظر إلى رثاثة ملبسها لأنها قادرة أن تكون أعظم من ذلك لو أرادت. واستطردت:
ــ «إني أوضحت لك ذلك حتى لا تتصرف تصرفاً لا يُقرُّه القانون وأنت على غير علم بالحقيقة».
لأن الإنسان عليه أن يستعمل الحكمة مع الأشخاص عديمي الإحساس (أي أن المرء عليه أن يظهر شخصيته و يعلن حقوقه عند الضرورة كما فعل القديس بولس الرسول أع ٢٢: ٢٥).

فلما أدرك الوالي حرج موقفه اعتذر لديها وقدّم لها ما يناسبها من الإحترام وأمر أن يفسح لها لكي ترافق القديسين بلا مانع.

و بعد أن استُدعي آباء مصر القديسون من المنفى، قامت ميلانية ببناء دير في أورشليم للعذارى وعاشت هناك سبعة وعشرين عاماً مدبرة لخمسين من العذارى. و بالقرب منها كان يقيم القديس «روفينوس» الذي من أكويلا ــ إحدى بلاد إيطاليا ــ الذي كان يناظرها تماماً في أسلوب حياتها حتى استحق أن يقدَّم للكهنوت، إذ لم يكن مثله رجلاً رزيناً متعلماً من الله.

وهكذا استمرت ميلانية وروفينوس يستضيفان ويخدمان الأساقفة والمتوحدين والعذارى وكل من يجيء أورشليم إيفاءً لنذورهم، كل ذلك من أموالها الخاصة. وكانا يثقفان كافة زائريهم وبالأخص جماعة الرهبان الذين كانوا قد سقطوا في هرطقة «بولس» حتى أقنعا أربعمائة راهب من الذين أنكروا الروح القدس، وأعادوهم لأحضان الكنيسة، وكانا يغدقان على كافة الإكليروس الذين في تلك النواحي بالعطايا والأطعمة حتى أكملا كل أيامهما دون أن يغضبا أحداً من الناس.

□□□

• هذه هي ميلانية الأرملة التي لم تخلد إلى الحزن واليأس بسبب موت زوجها كما تفعل الأرامل، بل استطاعت أن تخلق من ظرفها الصعب الحرج عزاءً لنفسها ولغيرها؛ هذه التي لم يتعدَّ عمرها أثنين وعشرين سنة صارت بسبب غنى حبها للمسيح سنداً وملجأ لا للضعفاء والمساكين فحسب بل لرهبان وقديسين بل ولأساقفة أيضاً ومتوحدين!..

• أنظروا يا إخوة هذه الأسبانية الغريبة الجنس، الغريبة اللسان كيف عاشت في مصر لا كسائحة في الأقصر وأسوان، بل سائحة في البراري والقفار والجبال الموحشة كقديسة في بلاد القديسين، تبحث لا عن الأجواء والمناظر الخلابة لمتعة الجسد بل تبحث عن الرهبان والمتوحدين، لا لتسمع منهم كلمات الحياة فقط أو تتنعم بمناظرهم وهم في ثياب الفقر الرثة يمارسون حياة الغربة على الأرض بأجسادهم الهزيلة التي تشبه الخيال... بل لتعزيهم أيضاً، وتكسوهم وتطعمهم من مالها وتكفن أجسادهم بيديها!...

• ثم اذكروا يا إخوة كيف عانت هذه الطوبانية الإضطهاد مع المضطهَدين وخرجت مع جماعة القديسين المنفيين من مصر إلى فلسطين لأن الإضطهاد من أجل المسيح كان أشهى عندها من التلذذ بالسلام والكلام مع القديسين!...

• وتأملوا وتعجبوا كيف أصبحت هذه الإمرأة الضعيفة سنداً للأساقفة والمتوحدين المنفيين وكيف كانت تتخفى بالليل كعبدة وتجلب لهم أعوازهم وتخدمهم!...

• سلام لروحك يا ميلانية من كل مصر ومن كافة جماعة الرهبان والمتوحدين.

• لقد أعطاكِ التاريخ الطوبى ثلاثاً: لأجل تحملك الترمل ولأجل خدمتك للقديسين في المنفى ولأجل رهبانيتك الطاهرة. ونحن نعطيك الطوبى أيضاً لأجل المثل الحي الذي طبعتيه على جبين التاريخ، أيتها المرأة النشيطة في خدمتها الكثيرة المحبة.

قصة إيمان مبدعة
من القرن الرابع

(١٤)





في مدينة نولا بفرنسا يوجد قبر قديس من القرن الرابع آسمه القديس فيلكس. وقد عثر على قصة فلاح بسيط كان يسكن هذه المدينة، سُرقت منه ثيرانه. ومن فرط إيمانه البسيط توجه إلى مقبرة القديس فيلكس وأخذ يتوسل إليه أن يعيد له ثيرانه بالصلاة التالية:

رُدَّ لي ثيراني ذاتها، لن أقبل غيرها...

لن أذهب إلى أماكن أخرى لأبحث عنها ــ من حقي أن أستردها هنا، لابد أن تعود لي هنا عند هذه العتبة حيث أنا واقف. إني أطالبك وأتمسك بك، لماذا أبحث أنا عن اللصوص، وأنا لا أعرف عنهم شيئاً؟...

إنك أنت المديون لي، أنت حارس الحقل... أنت أيها القديس... أنت المسئول أمامي، أنت الذي تعرفهم... إني أُمسك بك، فأنت تعرف أين هم، أنت الذي ترى ــ بنور المسيح ــ كل شيء حتى الخفيات، وتطَّلع على ما سُرق ونُقل بعيداً، وتدرك أيها الساكن في حضرة الله أين يكون كل شيء.

ولهذا السبب فإن اللصوص ومخبأهم ــ أينما كانوا ــ ليسوا مختفين عنك. ولن يستطيع هؤلاء اللصوص أن يزوغوا عنك لأن يد الله هي فوقهم. إن الله في كل مكان... لذلك أعد لي ثيراني وآقبض على اللصوص.

إني لست أُطالب بهم كخصوم... دعهم يذهبون لأني يا أيها القديس لست بجاهل لوسائلك: أنت لا تجازي على الأعمال الشريرة فأنت تفضل أن ترد الأشرار عن طريقهم بالمغفرة أكثر من إهلاكهم بالعقاب. هلم نتعاهد معاً فتفصل بين ما هو لك وما هو لي: فبشفاعتك ليبْقَ كل ما هو لي بلا أذى، و برحمتك فلتأخذ أنت ما هو لك ــ

وهكذا تعدل في قضيتك. فمن جهتك أطلق سراح اللصوص ومن جهتي رُدَّ لي الثيران!!

أما عن الوقت... فلا تدع واحداً من أتباعك يتسبب في التأخير. أسرع في نجدتي بكل اهتمام لأني عزمت على ألا أنصرف أو أبارح هذه العتبة حتى تهبَّ لنجدتي. وإن لم تسرع فسوف أفع وأموت هنا، وفي هذه الحالة إذا أعدت لي ثيراني فلن تجدني حياً لآخذها منك!!

وما أن انتهى الفلاح من صلاته المؤمنة حتى رجعت له ثيرانه المسروقة وقبل أن يغادر المكان.

□□□

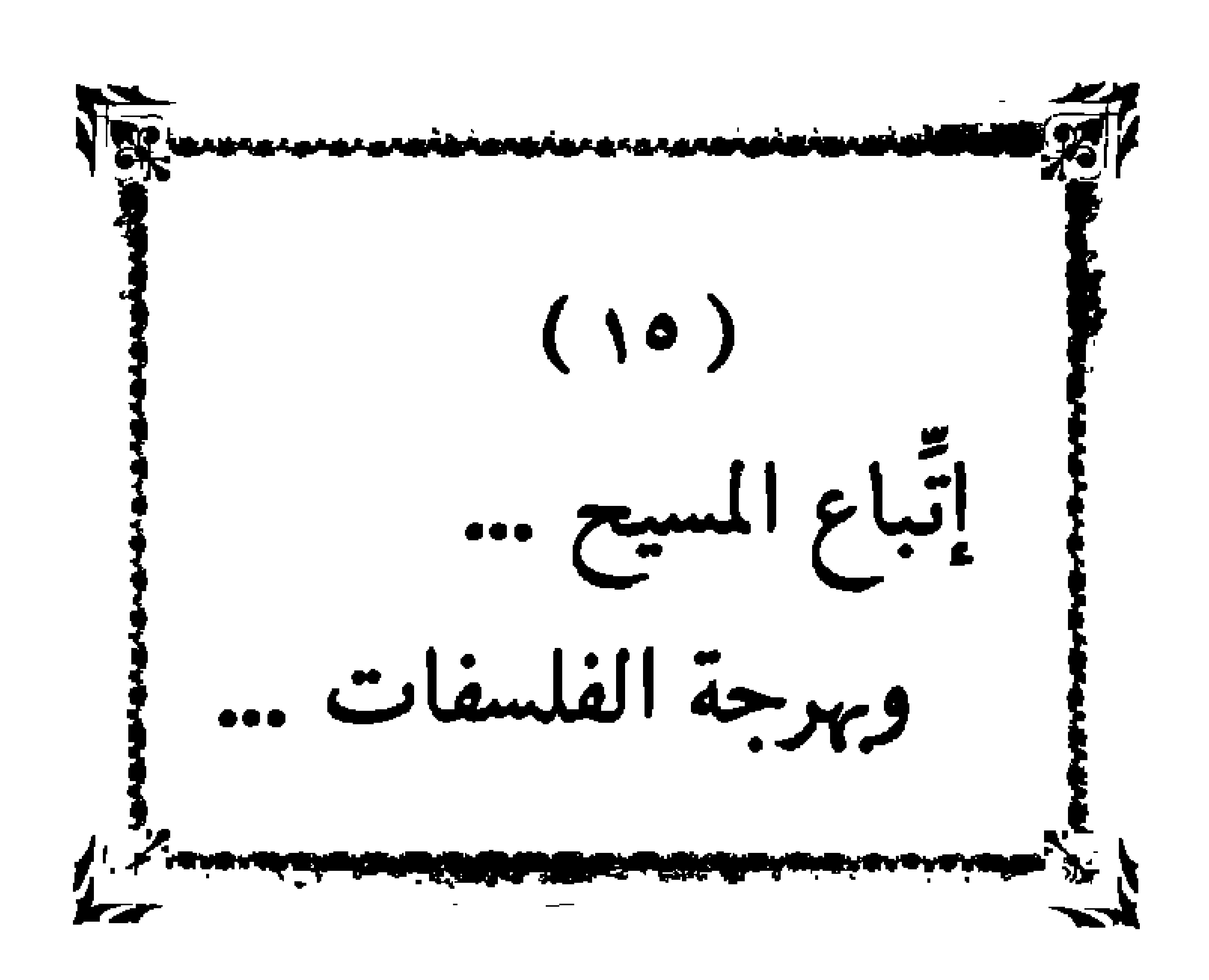
• هذه صورة حية من صور الصلاة للذين يريدون أن يتعلموا كيف تكون الصلاة.

• هذه صلاة إنسان ساذج فلاح، ولكنها ترتفع إلى مستوى الإيمان الذي كان لإبراهيم.

• هذه الصلاة ولو أنها من أجل أمور مادية ولكن لا يعسر على النفس النقية أن تستشف من ورائها روحاً فياضة وثَّابة متأججة قاسها الله بمقاييسه فتزكَّت واستُجيبت في الحال.

• هذا القديس فيلكس حيٌّ حقاً، ولا يزال يعمل في «نولا» وفي بلاد أخرى كثيرة، وغيره مئات ومئات من قديسي الله الذين يملكون مع يسوع المسيح ــ منذ الآن ــ في ملكوته الأبدي، ملكوت الخدمة والمعونة ومؤازرة العتيدين أن يرثوا الخلاص.





(١٥)

إتِّباع المسيح ...
وبهرجة الفلسفات ...



إحدى المسيحيات في موقف الشهادة للمسيح أمام فلسفات العصر الوثنية

يقول القديس چيروم:

لقد كنت أصوم لكي أقرأ في كتب الفيلسوف شيشرون... ما أتعسني!! وكم كنت مسكيناً!! وكنت أقضي لياليَّ في سهر، وأستدرُّ من قلبي لا من عيني أنهاراً من الدموع، وبعد أن أسترجع وأتذكر كل خطاياي القديمة، كنت أستغرق في قراءة كتب الفلاسفة الآخرين.

وبعد زمن، وحينما عدت إلى صوابي، وبدأت أقرأ أسفار الأنبياء، إذا بها تبدو لي جافة الأسلوب مثيرة للفتور. لقد فشلتُ في أن أرى النور بعيني الكفيفتين، ولم أكن أُعْزِي هذا العيب إلى الأسفار ذاتها بل إلى الشمس!...

وبينما كانت الحية القديمة (إبليس) تتخذ مني ألعوبة لها في أثناء الصوم الكبير، باغتتني حمى شديدة الوطأة أصابت جسدي الضعيف، وبينما كانت تحطم ما بقي مني من رمق، ولم تُبقِ إلا جلداً على عظم، صارت لي هذه الرؤيا، حقاً إن قصتي تبدو صعبة التصديق...

في هذه الأثناء وبينما كانت الإستعدادات تجري لجنازتي، بدأت البرودة تصيب أوصالي شيئاً فشيئاً، ولم يبق فيَّ من دفء الحياة إلا في رئتي المختلجتين...

وفجأة، اختُطفت بالروح وأُخذت أمام كرسي الدينونة الرهيب، وهناك حيث كان النور وهاجاً وحيث كان الواقفون ينيرون جداً حتى أني ارتميت على الأرض ولم أجرؤ على أن أتطلع...

وإذا بالسؤال يوجَّه إليَّ: «من أنت وما شأنك؟»...

فأجبت: «أنا مسيحي».

لكن الذي كان جالساً على الكرسي قال لي: «أنت تكذب، أنت تابع لشيشرون وليس للمسيح»، لأنه «حيث يكون كنزك يكون قلبك أيضاً».

وفي الحال أُلقيت على الأرض، وبدأ تعذيبي بالسياط ـــ إذ أنه أصدر أمراً بأن أجلد ـــ وما زلت أُحسُّ بضربات السياط حتى الآن كوخزات نارية من ضميري الذي يضع أمامي هذه الآية: «ليس في القبر من يشكرك»... إلا إني بدأت أصرخ وأندب حالي قائلاً: اللهم ارحمني... اللهم ارحمني... ووسط لسعات السياط كانت هذه الكلمات تدوي وتُسمع جيداً.

وتحت وطأة هذه اللحظة القاسية كنت مستعداً أن أقدم عهوداً ووعوداً بأقصى ما يمكنني. وعلى هذا صرخت إلى الجالس على العرش باسمه قائلاً:

ـــ يا رب... إن كنت أعود لاقتناء الكتب العالمية أو أعود مرة أخرى لقراءتها فسأكون حينئذ قد أنكرتك...

وإذ تفوهت بهذا الوعد، أُخرجت وعُدْتُ مرة أخرى إلى العالم. ومنذ تلك الساعة وأنا أقرأ الأسفار الإلهية بغيرة أعظم من تلك التي كنت أقرأ بها الكتب البشرية.

(من كنوز الآباء)

□□□

• هذه قصة تحذير وإنذار للذين استهوتهم بهرجة الأيديولوجيات. لقد أُعجب إيرونيموس بشيشرون والفلاسفة، وكثير من أبناء هذا الجيل يُعجبون بمن هم أقل من شيشرون أيضاً... إنها حمى... حمى قراءة الورق الأصفر وحمى تلذيذ العقل وتمجيد الشخصية.

• ليتهم يبلغون مداها سريعاً فتُستعلن لهم الرؤيا أنهم غير مسيحيين...

• لقد حذر آباؤنا قديماً من ملاقاة المراطقة. ولعل الذين يصيخون لصلوات القداس يتذكرون ترديد الكاهن دائماً لصلاة تدعونا أن لا نتصادق مع المراطقة. أما أبناء هذا الجيل فهم يتصادقون لا مع الهراطقة، بل مع مبدعيها أيضاً. لأن الجلوس إلى الكتاب هو أكثر فاعلية في النفس من الجلوس إلى صديق.

• نحن نقصد الذين يقرأون كتب الشيوعية والوجودية والمادية وخلافها، ويمزجون ألفاظها بألفاظ الإنجيل، إنهم كمن يخلطون دماءهم بدماء الأوثان...

• لسنا ندعو إلى مقاطعة الحياة الإجتماعية أو الإعراض عن التثقيف بالكتب. فالحياة الإجتماعية والوجدان السياسي ضرورة حتمية للإنسان الذي يود أن يعيش إنسانيته، وإنما نود أن نقول عن الذين يقرأون لمجرد التسلية والزهو والفخر...

• بل إن الذي يريد أن يتثقف بالثقافات العالمية، عليه لكي يحتفظ بوعيه الروحي سليماً وبإيمانه الحر بالله وحبه للمسيح ــ التي هي أعلى من الإنسانية بلا شك ــ عليه أن يضع المسيح الرب في أعلى نقطة من أفق تفكيره وتقديره وتكريمه فوق كل المستويات والمبادىء والفلسفات والنظريات والشخصيات، ذلك المسيح بشخصيته القاهرة بذاتها جاعلاً من الإنجيل القول الفَصْلَ لكل سؤال، آخذاً من صفات المسيح وسلوكه كل مثال.



قائمة بكتابات الأب متى المسكين

□

تحت الطبع

حياة الصلاة الأرثوذكسية

الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار

الإفخارستيا والقداس

القديس أثناسيوس الرسولي

أعياد الظهور الإلهي

الصوم الأربعيني المقدس

مع المسيح في آلامه حتى الصليب

القيامة والصعود

الروح القدس الرب المحيي (جزءان)

لمحة سريعة عن دير القديس أنبا مقار

الخدمة (٣ أجزاء معاً)

كيف تقرأ الكتاب المقدس

توجيهات في الصلاة

في التدبير الروحي

المسيحي في المجتمع

المسيحي في الأسرة

التقليد وأهميته

الصليب المقدس

العذراء القديسة مريم ثيئوتوكس

التسبحة اليومية ومزامير السواعي

القيامة والخليقة الجديدة

القيامة والرجاء الحي

العنصـــرة

الباراكليت

المواهب الكنسية

رسالتان في عيدي الصعود والعنصرة

الروح القدس وعمله داخل النفس

مع الروح القدس في جهادنا اليومي

يوم الخمسين في التقليد الآبائي

صوم الرسل ومكانته الروحية في الكنيسة

الروح القدس وصوم الرسل

العذراء في اللاهوت الكنسي وبحث تاريخي عن صوم العذراء

الشهادة والشهداء

لقد وجدنا يسوع

العمل الروحي

كلمة الله

التوبـــة

التبرير بين الماضي والحاضر

التوبة والنسك في الإنجيل

حبة الحنطة

حاجتنا إلى المسيح

تغيروا عن شكلكم

الفضائل المسيحية بحسب الإنجيل

الكنيسة الخالدة

الإيمان بالمسيح

القديس أنطونيوس ناسك إنجيلي

رسائل القديس أنطونيوس

مقالات بين السياسة والدين

الوحدة المسيحية

الوحدة الحقيقية ستكون إلهاماً للعالم

قصص مسيحية للحياة (في مجلد واحد)

سفراء من العالم الآخر

في زقاق المسيحيين

قصة استشهاد الرسولين بطرس و بولس

النيروز وذكرى أيام الشهداء

أيقونة جميلة

قصة استشهاد مؤثرة للغاية

قصة طهارة واستشهاد بارع

القديس فوكا البستاني

فلسفة الموت عند شهداء مصر

ألوجيوس والمقعد الرذيل

المحارب العجوز

تاييس امرأة الأساطير

القديسة ميلانية العجيبة

صلاة فلاح

إتّباع المسيح وبهرجة الفلسفات

ملكوت الله

المرأة «حقوقها و واجباتها و واجباتها في الحياة الإجتماعية والدينية في الكنيسة الأولى»

رأي في تحديد النسل

الكشف الأثري عن رفات يوحنا المعمدان

قصة الإنسان (حول الخطية والخلاص)

رسائل روحية

هذا الكتاب

بأسلوب قصصي مناسب لكل قارىء يقدم هذا الكتاب ١٥ قصة شيقة بعضها مؤلَّف، ويعتمد في روايته على أسفار الكتاب المقدس وكتابات الآباء الأولين وتحقيقات المؤرخين القدامى مسيحيين وغير مسيحيين، والبعض الآخر مأخوذ من سير القديسين والشهداء، في أسلوب مؤثر للغاية، مع تعليقات المؤلف المنبهة للأذهان واختتامه لكل قصة بصلاة عميقة تبرز معالم القصة وعبرتها للقارىء.

إعادة الطبعة الثالثة (١٩٩٢)

الثمن ٣ جنيهات